يوسف رخا

بيروت شي محلّ (نصوص وصور)

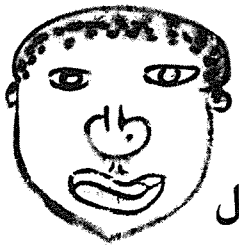

بيروت شي محل

كتاب أمكنة

سلسلة غير دورية، تصدر عن مجلة أمكنة،
تهتم بأوجه الكتابة المختلفة بالإضافة إلى طرق التعبير الأخرى
كالصورة الفوتوغرافية والرسم والتشكيل والسينما.

بيروت شي محل
يوسف رخا

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٦
رقم الإيداع في دار الكتب ٢٠٠٥/٢٢١٥٥

المراسلات: علاء خالد – ٤٥ ش إبراهيم راجي – بولكلي – الإسكندرية.
تليفون : ١١٣ ٢٧ ٥٤ – بريد إليكتروني : amkenah@hotmail.com

إخراج الكتاب وتصميم الغلاف : **محيي الدين اللباد**
[إهداء إلى الكاتب المصور]

يوسف رخا • بيروت شي محل

(نصوص وصور)

«يكفي نسيم بحري يحمل صوت سيارة عابرة الكورنيش... لكي ينتابك الإحساس أنك... كنت تعرف هذه الدروب قبل الحروب، وقبل أن تتغير المدينة وتصير إلى ما صارت عليه.»

ربيع جابر، «بيروت مدينة العالم»

كانت الطائرة مندفعة كطلقة عندما ارتجت رأسي بهذه العبارة: «انس الأيام. ضع قلبك على أقرب ترابيزة فقط. وانتظر»*. لا أخاف الهبوط قدر هذا الاندفاع على الأسفلت. كأنني لا أعترف بالخطر حتى يخضع للجاذبية. ومن سنين لم أرجع للقاهرة بهذا الشكل.

«الليلة لم تمطر ولا قطرة. لم أندم. على سفري بلا وداع»*...

في طابور الجوازات أتذكر أن هذا الكلام طلع مني وأنا بين مصر وإنجلترا+. طالب جامعي. تعيس أكثر الوقت. عيشتي حلم زائل أمام واقع المطارات. مجرد كلمات لم أدبرها طويلاً. كدت أنساها تماماً لولا أن رأسي ارتجت بها اليوم. لكن أكثر من واحد قال لي، عندما نشرت، أنها «أجمد» شيء كتبته. والأغرب أنها لم تُنشر إلا صدفة – تقريباً صدفة – فقط في بيروت، من حيث أنا راجع الآن. الضابط لا يرد تحيتي من وراء الشباك. أميل على سير الحقائب. رغبة موجعة في التبول.

من أكثر سفراتي إجهاداً. لا شك أنها بفائدة. «لن يعرف أحد أبداً. إحساسي في الحمامات العامة. ولن يتذوق الآخرون. طعم الوحدة المستديرة»*.

*

لعل سائقاً أرسلته أمي مختبئًا بين حاملي اللافتات...

«يا أخي، الصرافة صرافة، والتدفيش تدفيش، والشنت... الله بيعرف شو في بعد الشنت...»

زياد الرحباني، «العقل زينة»

مرافئ

«وأستمرئ الخوف الذي ينز في جسدي حين أضل الطريق»*. ليس بالضبط. مسافر – هذه المرة – نتيجة دعوة محددة: الوقت حان لأرى مدن المشرق – على حد "س" المعتنية بأمري – بالإضافة للارتياح من أعباء الجرنال. ثمة رغبة خبيئة في اختبار حياة محتملة. هل هي محتملة حقاً؟ بالفعل عرفت شيئاً من اللغة، واعتزمت الإنصات – على غير عادتي – لشرح مفصل عن تاريخ الحرب الأهلية وسائر التطورات.

لا أستمرئ الخوف، ربما لست خائفاً. لكن شيئاً كالضياع يحيط بالمساحة التي يشغلها جسدي. منذ سنين لم أغادر الحدود المصرية. لم أضطر لحمل جواز سفر أو تعبئة بطاقات مغادرة، ولا الوقوف بالصف أمام شباك خلفه ضابط. مررت بالفعل من حاجز الأمان، سلمت حقائبي، وسماني أكثرهم «باشا» بفضل المهنة المدونة في الجواز – صحفي بمؤسسة «الأهرام» – لكن نغزة رعب مفاجئة تنتابني ما إن أصبح في صالة المغادرة: لا مهرب الآن من الإقلاع في طائرة لبنانية، لا مهرب من الهبوط في مدينة لم أزرها أبداً.

وإن لم تكن "س" هناك ماذا أفعل بنفسي؟

المطار يبدو أنهم طوروه. أذكر بحثي شبه المهووس عن مقعد، وتوجيه اللوم في رأسي للجهة المسئولة عن إعادة التصميم – هذه أيضاً شركة خاصة؟ – فلا مكان أجلس فيه، ولا أحد أتحدث معه. نظرات الآخرين همس متوجس: كأنني أعرفك... لكن رهبة غريزية تفصل بيننا في اللحظة الأخيرة. أحياناً يكون هذا الأفضل. في المطارات نتطلع لبعضنا البعض كالمحب الهائب رفض الحبيبة، أو كشركاء جريمة يلتقون صدفة بعد ارتكابها بسنين. مبتعداً بعيني أتلفن لزميلتي المطلّقة في «مدينة نصر». فتاة ليل عمرها ثمانية عشر عاماً. ثم عشيقتي بيروتية الأصل في مسكنها بنيويورك. لأمي وصديقي المخرج وزميلي الملتحي و"س"...

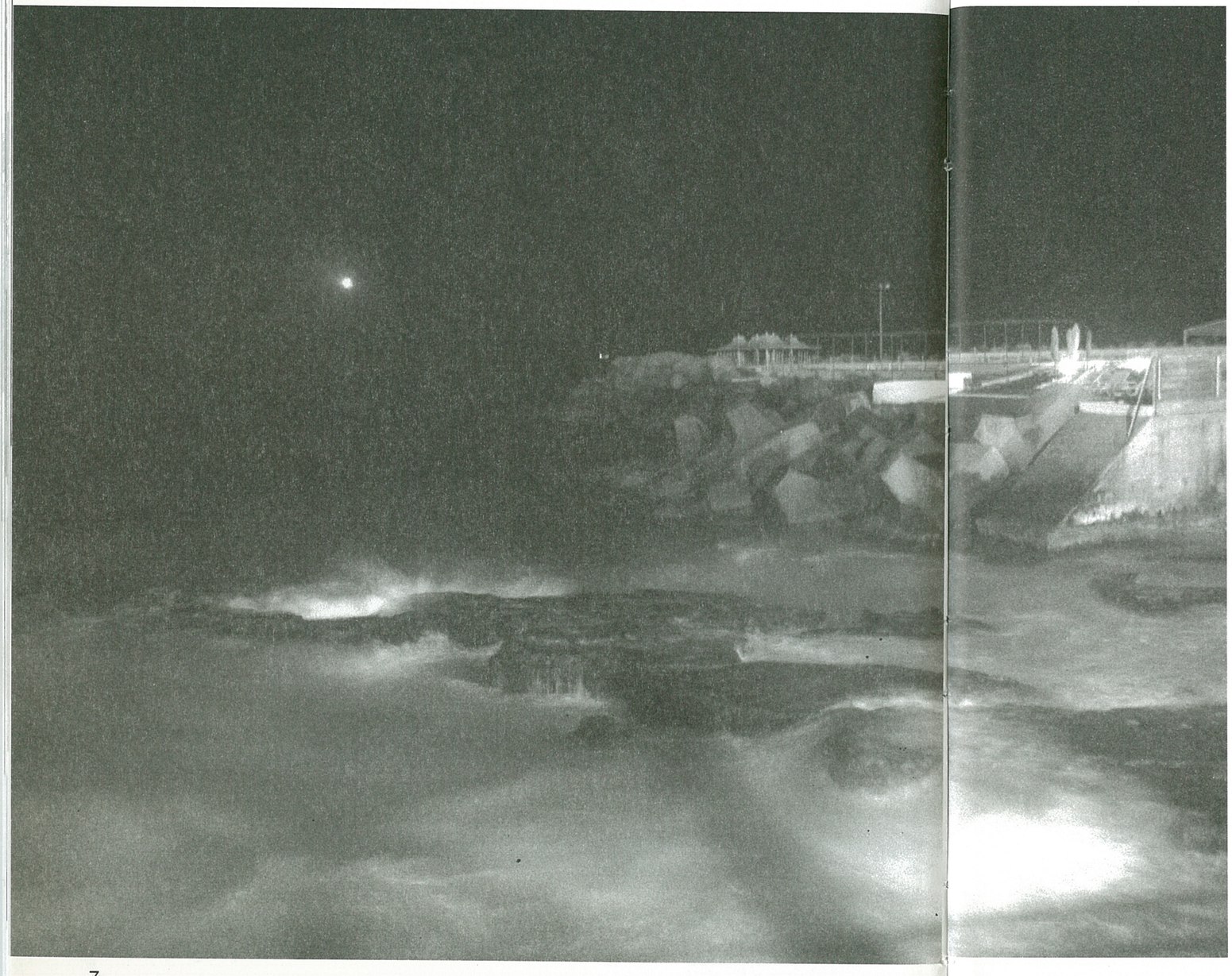

صباح ٢٠٠٥/٤/١٣، تحديداً، أتلفن لـ "راشد" في فرنسا: «اسكت مش أنا رايح بيروت».

حجرة الدخان كالزنزانة شبه خالية من الأثاث. تتكرر الوجوه. معظمنا من الذكور المصريين الساخطين على قواعد التدخين الجديدة. غياب الفوضى مريب، و«شياكة» المكان. في الركن رجل أصلع يرتدي قميصاً «فوشيا»، صوته غليظ. تتدلى من عنقه سلسلة ذهب. يجلس القرفصاء معلناً أنه سيعيد تشغيل جهاز تصفية الهواء المعطل. أقرب إلى النوافذ العملاقة حيث إعلان «نيون» مجسم يدور حول نفسه ورجل أعمال فخم –رفيقي الوحيد في هذه البقعة – يتلفن هوائياً بلا توقف. أتأكد من أن الشبكة قوية بما يكفي – لا يمكن أن أتلفن وأدخن في نفس

الوقت، ولا أشرب الشاي وأدخن، ولا أتبول وأدخن – ثم أطلب الأرقام المسجلة في جهازي بلهفة. أصواتهم تطمئنني. لا طاقة لي على الحديث.

أعود أدراجي إلى الحجرة. يجمعني بالآخرين شعور كالانتماء. أبناء أقلية واحدة. نذهب ونأتي، نحن نحن. ينمو تعاطف أبله يدفع، بنفس الرهبة، على هز الرأس والابتسام. «حتة» مني تريحها صحبة المدخنين.

***

مهتم بحكاية لبنان. الكل يقول إنها معقدة.

لم أفهم شيئاً من «بيروت بيروت» لـ "صنع الله إبراهيم". لم تسعفني الإرادة، قبل أن يصبح لي أصدقاء من هناك، على البحث عن كتب أو أفلام توثيقية. زملائي بمكتب «الأهرام ويكلي» Al-Ahram Weekly يمسدون تفاصيل الأخبار لصالح هذه الفكرة أو تلك. ثمة اتفاق مضمر على أن إسرائيل وأمريكا شر (كذلك كل من يتعاطف معهم) عكس العرب والمسلمين المغبون حقهم، الطيبين.

آخر حدث تابعته بنفسي نجاح «حزب الله» في تحرير جنوب لبنان. خروج إسرائيل لم يكن في الحقيقة أكثر من مناورة عسكرية في حربها الفاترة مع سوريا. هكذا أخبرني اللبنانية. جبهة الجنوب. «المقاومة» لم تؤثر إلا على ثلاثة مستوطنات، ولم يكن تأثيرها كبيراً. مثل موضوع «مزارع شبعا»، حيث يتحجج «حزب الله» بتحريرها ليظل، دوناً عن كل التجمعات الأخرى، ممسكاً بالسلاح،

اكتسب «الجلاء» بعداً قومياً غير حقيقي. "حسن نصر الله" – هكذا قال بعضهم – مجرد ورقة لعب في يد الحكومة السورية: «فيك إتقول إنه عميل، إيه»... ومع أن شيئاً من هذا لم يخطر ببالي وقتها، لم يثنني الانتصار المزعوم عن النفور من الإسلام السياسي. انخرطت في أخبار فلسطين والعراق دون أن أنتبه لهذه الأشياء...

قبل أسابيع سبّب اغتيال "رفيق الحريري" لـ"س" قلقاً كبيراً – أنا لا أعرف أكثر من أنه رجل أعمال ثري شغل منصب رئيس الوزراء أكثر من مرة – ضاعفه توالي الانفجارات في أحياء بيروت المسيحية. البعض يتحدث عن نشوب الحرب من جديد. الغريب أن المدينة تحتفل، يوم وصولي، بالذكرى الثلاثين لاندلاع القتال (١٣ نيسان ٢٠٠٥): أليس الأحرى بها أن تنتحب؟

ولماذا يصر اللبنانية – عكس رأي زملائي في المكتب – على أن الحكومة السورية وراء الحادث؟ أعرف أيضاً أن الجيش السوري يشارك في إدارة لبنان منذ ١٩٧٦، الأمر الذي يغيظ المواطنين على اختلاف طوائفهم. لكن أليس لتواجد سوريا – منذ ١٩٨٩ على الأقل – دواعٍ أمنية حقيقية؟ وهل يتعارض رفضه الآن مع الوقوف بوجه حملة "بوش" عليها بعد احتلال العراق؟

الموضوع كبير. بالذمة الواحد لا يبقى على جهله أحسن؟

لكنني – فجأة هكذا – مهتم بحكاية لبنان. فرحان لأنني سأحضر ذكرى ١٣ نيسان. فرحان لأنني لبيت نداء "س". فرحان لأنني سأعرف أخيراً ماذا تعني بيروت، وصديقي الذي لم أره الصحفي الشاعر، وألحان "زياد الرحباني"، وشاطئ بعيد للبحر الأبيض، ومنقوشة الزعتر على «الترويقة»...

قلبي على الشرابيزة

الحق أن شيئاً من هذا لم يخطر ببالي وأنا أباشر المرور بالبوابات.

مشغول بغنج مضيفات «خطوط الشرق الأوسط». شائع عنهن التقرب المجاني للركاب، الأمر الذي جدد الأمل في أن أكون سيارة جنس مفخخة لم يحن موعد انفجارها إلا الآن. نسيت أن مخرجاً توثيقياً من بيروت حين رآني – قبل أسابيع، في مصر – قال إن شكلي فلسطيني من «عين الحلوة». سأفهم في وقت لاحق أن هذا لا يعني اللجوء السياسي فقط ولكن أيضاً الفقر والإجرام.

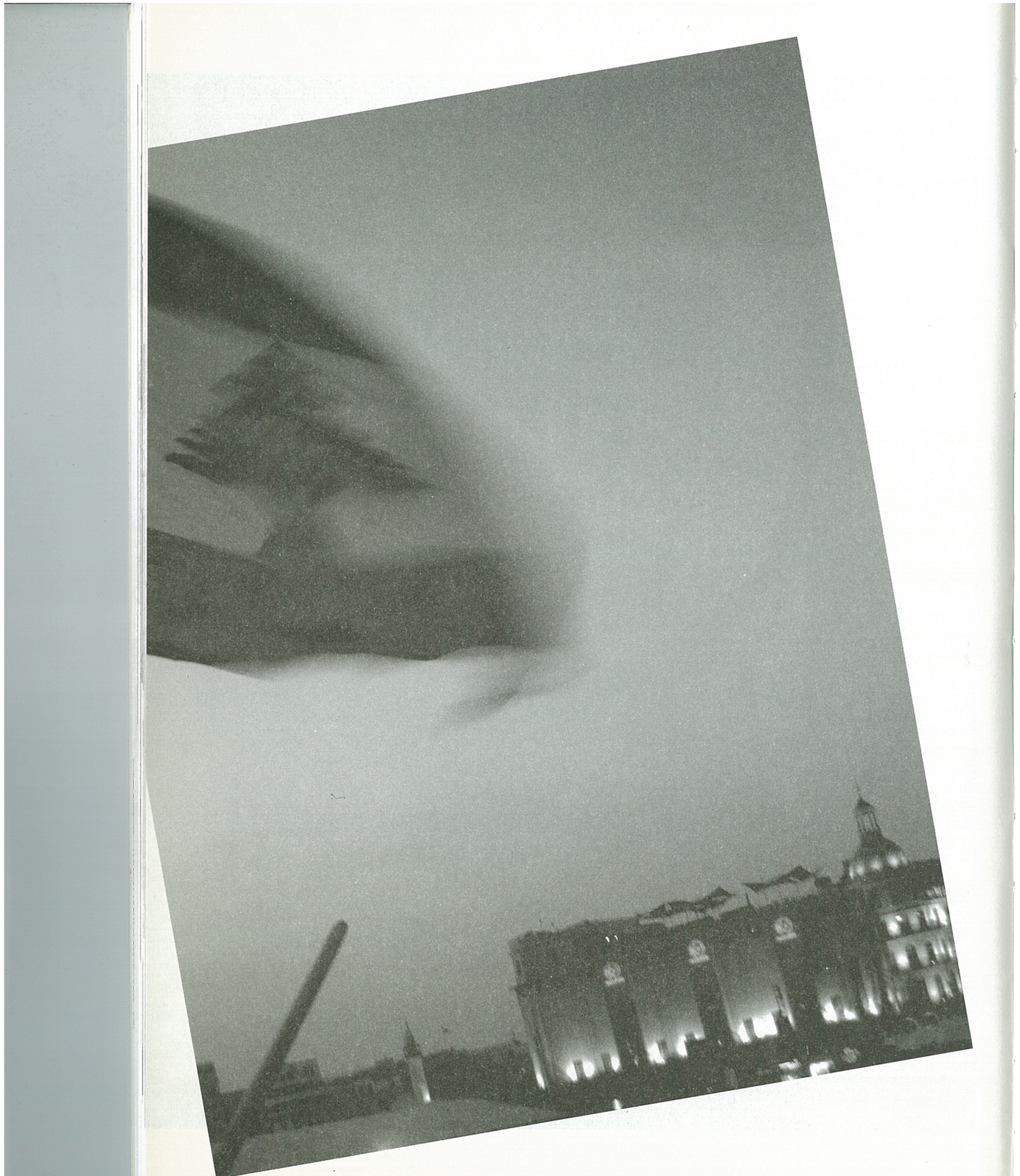

كان على حق للأسف. لم تفلح أعذب ابتساماتي ولا الرسائل الخفية التي أبعثها في إثارة ولو مودة أخوية من جانب المضيفات. أذكر أن القائمات على الدرجة الأولى كن أجمل وأخف وزناً، الأمر الذي استدعى تساؤلاً حول العقلية التي تدير الطيران اللبناني : هل لا يخجلون؟ حتى القلم الذي اسأذنت في استعارته لأملأ البطاقة لم يصلني إلا والطائرة تتأرجح هابطة بين مطبات الهواء.

ومن الرعاش الذي يصيبني في المرافئ إلى تلمس ملامح عروبة أخرى – هويتي الباطنة هذه، نعم، ربما، هوية محتملة – ألهاني رداء الأمن الداخلي عن رطوبة الجو وكون السيارات الأجرة «مرسيدس» Mercedes بلا استثناء. لم أستغرب إلا أشجار السرو، وقدرة شعب كامل على التخاطب بألفاظ لم أعرفها – عموماً – إلا مكتوبة : «بعد» و«إياها» و«الدرك»، حتى «سيارة» و«بلى» أو «نعم» (بدلاً من «الأيوا» الملتبسة) لرد الاستفهام. مع الوقت سأتقصى الفروق الثقافية في الكلمات : العالم لا تخرج، مثلاً، إنما «تظهر» في الأماكن ؛ الحصول على شيء عادة ما يستتبع «تأمينه» ؛ أن تموت يعني أن «تستشهد» بالضرورة ؛ طاعتك في أن «تكرم عينك» ؛ و«التجريب» مجرد محاولة... «لحّام» يعني «جزار»، و«مسلخ» بدلاً من «مذبح» ؛ «الزفت» ليس شيئاً سيئاً بالضرورة، فهو «أسفلت» الطرقات ؛ «المرور» فقط «سير» – غير أن «الزحمة»، «عجقة» – و«العقاب» دائماً «قصاص». «فشخة» الرجلين لا تحمل إيحاءات جنسية...

«لأنه الحكي بينزل مني هو التاء تبع بيروت.» – ريس بيك

نهاراً كاملاً شعرت أنني أتعرف على جوانب مزنوقة من روحي. كأن يكشف النساء شيئاً من أجسامهن في الشوارع، أو يستطعم الإنسان البن في القهوة، أو يقف لك سائق تاكسي قبل أن يعرف وجهتك. حتى الجرائد فيها أخبار –مجرد انطباع– وكونك موظف يعني أنك تمارس وظيفة. الخروج يؤدي فعلاً للترويح عن النفس. غادرت الفيلم الذي أعيشه ولاتزال الحياة باللغة العربية. (كان "نبيل تاج" يقول –عن القاهرة– «الحاجات شَبَه الحاجات». يخيل لي أن «الحاجات» هنا، مهما كانت أبسط أو أتفه، هي نفسها «الحاجات»...) في بيروت يمكن أن تقول «مَرَة» دون أن يشمئز منك أحد، أو تلعن رب رفيقك فلا يتهمك بسب الدين. يمكن أن تعمل نادلاً أو حوذياً دون أن تُضرب على قفاك. وإذا حدث واجتمعت بأعداد كبيرة في مكان عام، لن تحوطكم أعداد أكبر من جنود الأمن المركزي.

"س": من «ساحة البرج» لـ«صبرا»

بدأ الحكي تقريباً منذ موقف سيارات المطار. من تراس أهل "س" بالدور التاسع يبدو الكورنيش أبعد وأوسع من بحر الإسكندرية. أتطلع للأسطح. الجبل لليمين. الشمس حلوة وماء البحر في الجو. سهل تحمل الحرارة لكن التعب يحل – جلستنا مع القهوة المصنوعة من «بن يونس» لا تعوض – لكن "س" لا تكاد تتم حادثة «بوستة عين الرمانة» حتى يجيء موعد ذهابنا. طوال عشرة أيام لم أفهم من أين أو لماذا يأتي هذا الموعد. أظن "س" مثل أكثر سكان بيروت من هذه الناحية: تحرص على استقباله بلا تفكير، لا يخطر ببالها أنها إذا نسيته لا يأتي. أنا أمضي وراءها مهيض الجناح، أو قل إن جناحي يرفرف حصرياً في مجالها الجوي.

لكنني أحببت أن أحط على هذا الشاطئ كطائر أغبر من «عين الحلوة»، في المجال أو خارجه. فلسطيني افتراضي. أتصرف – على حد الأصدقاء – باستهتار وهوجائية الشيعة. أسود مثل الليل. «أخوت». «شرشوح». أي شيء سوى مصري تافه، لا شيء يدعوه لترك «الدقي». ومع أن مصريتي ستوجعني أكثر من مرة، أدرك – منذ الآن – أنني على وشك أن أتعرف بنفسي.

عمارة «راس بيروت» كـ«الميكانو» Meccano متعدد الطبقات.

الطريق يصعد ويهبط، يستدير وينسد. عندما نمشي قليلاً والكورنيش وراءنا يأتي إحساس باختباء الأشياء داخل بعضها البعض. كأن دستة مدن كاملة قامت وانهدمت خلال الشهر، تبقى آثارها – في المدينة الحالية – على بعد طرفة عين من أسطح الواجهات. لا يوجد وسط بلد باللغة العربية: نمشي باتجاه «الداونتاون» Downtown –هكذا أكتشف– والعجائز الجالسون على العتبات يشيرون لنا كما يفعل أطفال المدارس مع السياح في أحياء القاهرة الشعبية.

على الشارع العمومي نصطدم بمعرض أو ملاهي.

محطات مرتجلة لتبادل الهتافات. أكثرها واردات تسوّق على حس لبنان. أقلام. فناجين. أرزات صغيرة من البلاستك. أوراق مصورة. «كروت». رايات بمختلف الأشكال والأحجام. «ميتين أم دي وطنية». الأجسام تُستعرض بقصدية تتجاوز التحرر من حرمانيتها. ثمة وعي بالجسد يجعلك بعيداً جداً عن أوروبا، لكن كل شيء هنا يحاول أن يقنعك أنك هناك.

قرب منطقة المشاة التي أنشأها "الحريري"...

ستشعرني التمشية هنا أنني داخل ستوديو: مشهد برنامج إعلاني. وفيما بعد، عندما أنحرف من خلف «ساحة البرج» عابراً الآثار الرومانية وحدي، وأنا أحاول أن أتذكر اسم الشركة التي نفذت المشروع – «سوليدير» Solidiere – سأكتشف ما أخبرني به أصحابي المصريون من قبل: شيء ما في بيروت يشعرك أنك دون المستوى. (صديقي النوبي الأصل يقول إن الصدمة الثقافية التي لم تعترضه في إنجلترا أو إسبانيا وقفت عائقاً عملاقاً في طريق لقائه ببيروت. لأول مرة – يقول – شعر أنه «شخص أسود».)

كأنك في منافسة دائمة مع قوى فوق طاقتك.

الكل يراقب الكل من فوق مفارش هي عبارة عن أعلام لبنان. هناك عروض خاصة في المطاعم بمناسبة ١٣ نيسان، وحتى إعلانات الميكياج تتضمن كلاماً عن الوطن. الكل يستعرض أشياءه بغلاظة يداريها حسن خلق برجوازي ظللت أهرب منه عمراً دون أن أدرك مداه. (لم أتصور أبداً أن تؤكل السندويتشات sandwitches بالشوكة والسكين). وسأشعر أنني واحد ضمن مئات الموديلات في عرض أزياء لا نهائي.

خاصة في «ساحة النجمة»، حيث الساعة... أتوه في اللافتات.

شارات وموسيقى. أبواق. مئة «ريمكس» remix للنشيد الوطني، «روك» rock و«تكنو» techno و«هيب-هوب» hip-hop. انطلق «الماراتون» marathon منذ قليل من جنب خيمة حمراء، وثمة مشروب أزرق يقدم مجاناً في أكواب بلاستك. "س" تتضاحك، تمتعض، تقلق من طريقتي في المرور بين السيارات. العَلَم، وجه "الحريري"، «الحقيقة... لأجل لبنان». علو صوتي في التعبير عن ما أرى يصدمها.

(مع الوقت أشعر أنني مصري تافه بالفعل... لم أشاهد أفلام "إيليا سليمان"، مثلاً، ولم أسمع في حياتي اسم "فرنجية"... أين اختبأت عروبتي بحق "عمر بن الخطاب"؟ الوحيد من أبطال العروبة العربي عرقيًا. لكن كل هذه السنين؟ «كس إختها عن جد». افتراض ضرورة الاهتمام بالأقطار الشقيقة. إما هذا أو «برجوازية فارغة». وكأن بيروت كلها ليست خلخالاً فضة في كاحل برجوازية المنطقة...)

«تشيرليدرز» cheerleaders؟ لأجل لبنان؟ أنظر حولي كالأبله. العري والمجون. فتاة تقترب مني مبتسمة. نصف صدرها يلمع. منذ دقائق رأيت «الجنز» jeans الذي تلبسه من الخلف: أضبَط مؤخرة في الشرق الأوسط. نظرتي ترتفع من وجهها إلى علم لبنان، طائرة تدوي على مسافة مقلقة، علم آخر، سلسلة أعلام. سحابة فضية تشبه شجرة الأرز. أشعر بيد الفتاة تقترب من خصري فأتأهب... الله أكبر... تخرج من الكيس مصاصة. نفس الابتسامة على وجهها. الفرقة الموسيقية لاتحاد اللحامين تمكنت اليوم من جمع ألف دولار – شيء من هذا القبيل – تخبرني وتمضي. أحس أنني في أمريكا، فجأة. «الإن-بي-إيه» NBA.

مذهول من أسلوب التعبير عن الوطنية. تجمعات تنعقد وتنفرط بامتداد السكة. مذهول ومستاء. سهل أن يشعر الواحد بالأسى. وسط الجموع لابد أن يكون لكل شيء معنى، ولا معنى لأي شيء. نعبر خط التماس والنهار يشرب سيجارته الأخيرة. أقبل "س" في عنقها (هذا أيضاً يمكن أن تفعله دون أن يشك فيك أحد). السحب أشخاص ومراكب. على البعد درك وجيش. فرح هائل يخضني.

مرافئ

الجو حلو وكورنيش الإسكندرية مهجور. موسم الاصطياف لا يبدأ حتى انتهاء الامتحانات. لازلت مندهشاً كم هو أوسع، في الحقيقة، من كورنيش بيروت. شهر أو أقل على عودتي. والبحر هادئ تماماً. مشاهد الشام تشتعل وتنطفئ. وأمي تصلي جالسة، على رصيف المقهى. ظهرها للبحر. واحدة من ملايين التائهات على طريق المعاصرة. فوق المنضدة صورة من «ملحق النهار» الصادر في أعقاب ١٣ نيسان: سوريون يعقبون على الانسحاب من لبنان. أتذكر نظرة "س" وهي تعطيني إياها وقت رجعنا من «صبرا». غرام صرف، على الرغم من الصداقة التي بيننا. وفي نفس اللحظة يتهيأ نهد عشيقتي، دون مقدمات.

كيف أنها أيضاً بيروتية، بشكل ما؟ لم ألحظ حتى اليوم كم تشبه "س"، رغم أنها نشأت في غير قارة. اثناتهما مواليد ١٩٦٩. منذ أن سمعت بصداقتنا تغار منها، مع ذلك. لا تعرف كيف تذكرها بالخير. المهم – كيف فاتتني الحرب، صحبتها؟ صحيح أنها لا تعرف عنها الكثير، ولا من لغتها – نتكلم بالإنجليزي في العموم – ومع ذلك، كان يمكن... مثلاً... قلت لها أكثر من مرة: أود لو أعرف لبنان.

بالليل أبحث عن «إنترنت كافيه» Internet café. مرتعشاً. أنتظر رد المؤسسة الثقافية التي قدّمتْ لها، عني، طلب إقامة residency. حتى أكون معها ثلاثة أشهر في نيويورك. «نعطي حالنا فرصة، ما هيك»؟ سلاطة الرغبة بالإدرنالين. إسلاميون وعذراوات. ثم فرحة كالدوخة عندما يأتي e-mail القبول. منقوعة في إفرازات فرجها. منقوشة بالخوف.

«الحمرا» والآخرون

ليس فقط لأنها ذكرى اندلاع القتال. من أول نفس هواء في بيروت أبحث عن معنى للحرب. ثم انتهائها. لا شك أن للمسألة صلة بإدراكي المتأخر «للي صار». لم أكن أعرف –مثلاً– كم هي قريبة مجزرة «صبرا وشاتيلا»، ولا أن "شارون" Ariel Sharon – في الرواية الإسرائيلية – لم يأمر بتنفيذها أصلاً. ثمة رأي يقول بأن "إيلي حبيقة" وثلاثة من قادة الجناح الأمني لـ«القوات اللبنانية» تطوعوا بها.

و"إيلي حبيقة" – بعد الحرب – صار وزيراً في الحكومة اللبنانية. و"إيلي حبيقة" قُتل يوم قرر أن يكشف ما حدث أمام محكمة دولية...

أشياء كثيرة لم أكن أعرفها، لكن المكان أيضاً معبأ. الجلبة، دون صوت. بخار كثيف غير مرئي يتصاعد من الأدمغة والكيانات. كأن مؤامرة ضخمة تتحكم في تصرفات الناس. المهم أن يكون «مفيش مشكلة». الجميع يحب الجميع... وظلال السوريين تطارد كل واحد منهم من خلف الأسطح والجدران...

حدثني "محمد سويد" – في «الحمرا» – عن الحرب من منظور أنثوي. قال إن هذا يفتح احتمالات غائبة في المنظور الذكوري السائد. لم أفهم قصده بالضبط لكنني قلّبت الكلام في رأسي... خاصة بالرجوع إلى «سينما الفؤاد»... صديق أقرب كان قد أكد لي – في «ساحة النجمة» – أن الحرب أصلاً لم تتم. صحيح أن الميليشيات militias اختفت والموت لم يعد يومياً.

لكن منطق العنف «الميليشياوي» لايزال يحكم التفاصيل. خاصة في السنين الأولى لوقف إطلاق النار – قال – كنت تنظر إلى سيارة مسرعة على الطريق فتجدها تنحرف غريزياً باتجاه شخص يعبره، عكس بقية العالم، حيث تحيد عن ذلك الشخص بتلقائية تامة. لا تتدارك البلوى حتى اللحظة الأخيرة. الناس تدخل البارات – استطرد – بأداء بوليسي يتوقع الهجمات. دائماً مجموعات صغيرة ترسم دوائر منغلقة على نفسها – ثلاثة رجال يحوطون امرأتين، مثلاً – بأجسام بعدها تتكلم بلغة «البواريد» و«الفرودة»، وعيون على وشك أن «تقوّص» غريماً يتأهب لها من وراء الطاولة المجاورة.

أراحني أن لا يكون مجرد «هرتلة» مصرية ذلك التشكك الذي قابلت به انسجام جحافل المعارضة، على اختلاف انتماءاتها، في احتفالات ١٣ نيسان. لكنني قلت لصديقي – ببلاهة من شأنها أن تقع من أذني موقعاً أنثوياً – «برضه جميل إنك تشوف الكتايب بيغنوا أغاني "مارسيل خليفة"».

***

الحرب من منظور أنثوي يعني الاضطراب المترتب على أن تقتل. شعورك بانتقاص رجولتك إذا خذلتك القسوة. ربما يعني الحداد في مقابل بهجة الرصاص. أو تدبير المجازر من تحت أغطية السرير. ارتباط العشق بالموت، كما أعاد اكتشافه "جان جنيه" Jean Genet وهو يكتب هنا – غير بعيد عن «محور جان دارك» Jeanne d'Arc حيث أسكن – وبعد سنين من الحياة بلا كتابة. القبلات المبللة على خطوط التماس. أو لواط جنوني بين المقاتل وعدوه، على إيقاع انفجار القذائف. اختراق الإست على أطلال البيوت. ووسط الحانات المتهدمة، الرغبة في المزيد من العرق والغناء. إدراك أن أحداً لا ينتصر في النهاية. ولا حتى الذي يقتل أكثر. ولا الذي يفرض سطوته. ولا الذي تدعمه سوريا ولا الخميني ولا الأمريكان.

قالت لي عشيقتي: كلما جئت لزيارتك، شخص أحبه يموت.

أن تكون الحرب امرأة. أو امرأة في جسد رجل. هذا الأوقع فعلاً. رجل يريد أن يصبح امرأة لدرجة أنه ينضم لتنظيم مسلح بغرض تمويل الجراحة. تنظيم فلسطيني حقيقي، في الحرب. التنظيم الذي يقود بعض صفوفه عشيقته. هكذا يتجدد أملهما في أن تسد المنح الرسمية فجوة تفصل الجسد عن الروح. وبمزيج من الشجاعة والشوق للموت، مع أن المقاتلين يظنونه بناءً، يصبح "خالد الكردي" أكثرهم جسارة في القتال.

***

منذ معرفتي بـ"س" تعودت أن أنزل على المظاهرات. لا طاقة لي على الهتاف أو المشاركة. أقف على جنب أتفرج. راح

الخوف الطفولي من الاعتقال والتعذيب لكن أعداد الجنود تحبطني – بالقياس على أعداد المتظاهرين أنفسهم – ثم تجاوزات المباحث.

ثمة إحساس باللاجدوى يسحب من عندي الأمل. أشاهد «حرب لبنان» وأفكر أن الحل الوحيد في الميليشيات. سلاح وسفك دماء. كيف تتكسر شوكة "الداخلية" إلا بحركات انفصال؟ ربما لو صارت «حرب مصر» لما أصبح اليأس مركز كل شيء.

مرافئ

أكتب بـ«مقهى الروضة». الماء والشمس والمناقيش. بساطة مدهشة في السياق البيروتي.

على الممر المقابل تجلس "س" مع مخرج فلسطيني وروائي لبناني ومغنية «مُزَّة». أسعدها أن أجد لنفسي مطرحاً منفصلاً: ستستريح من همي بضع ساعات. ليس غريباً جداً أن لا تعذبني الوحدة ولا اللاانتماء. غارق في تفصيص برتقالة الحرب. وخلال أيام صار المقهى إسكندريتي الصغيرة. ("نوران" –النادل السوري– يعرف وجهي أيضاً.) رغم اخضراره يذكر فعلاً بمقاهي «ستانلي» و«الشاطبي» –مثلما تذكر رائحة الكورنيش بـ«محطة الرمل»، وانحناءات حواري «برج حمود» بـ«بحري»، ولفحات الهواء في «الحمرا» بـ«شارع صفية زغلول»– في وجود "نوران" أو غيابه، أصبح «حاجة خصوصي كدا».

ولكي أراجع ما عرفته للآن... من انفجارات الموج على الصخور إلى ضحكة صديقة مارونية (في مبنى «السفير» صحفية شكلها مألوف ستقول لي إنني لن أفهم أبداً) ربما يمكنني أن أفهم...

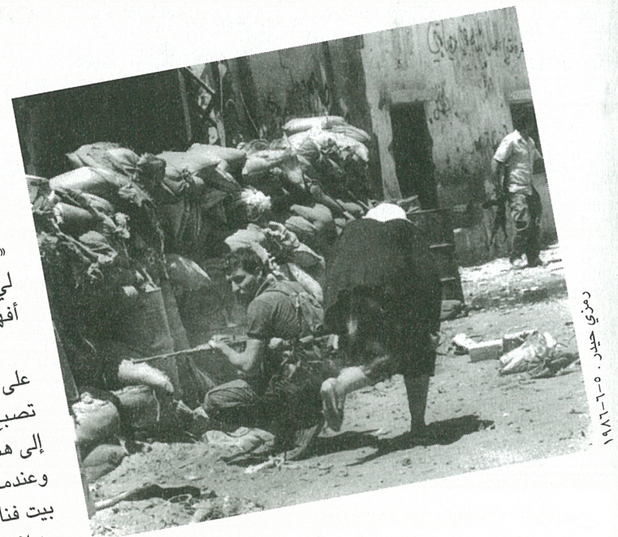

رمزي حيدر. ٥-٦-١٩٨٦

على الأقل أعيد ترتيب الحقائق حتى تصبح لها دينامية سائغة. «الذي أتى بي إلى هنا. هل تعرف»*... مجرد كلمات. وعندما ينتهي الكلام ويحل الصمت في بيت فنانة فرانكوفونية –ثلاث قبلات بدلاً من اثنتين– ماذا عساي أن أفعل بفهمي؟ الهواء يحرك كل شيء. أرفع وجهي عن

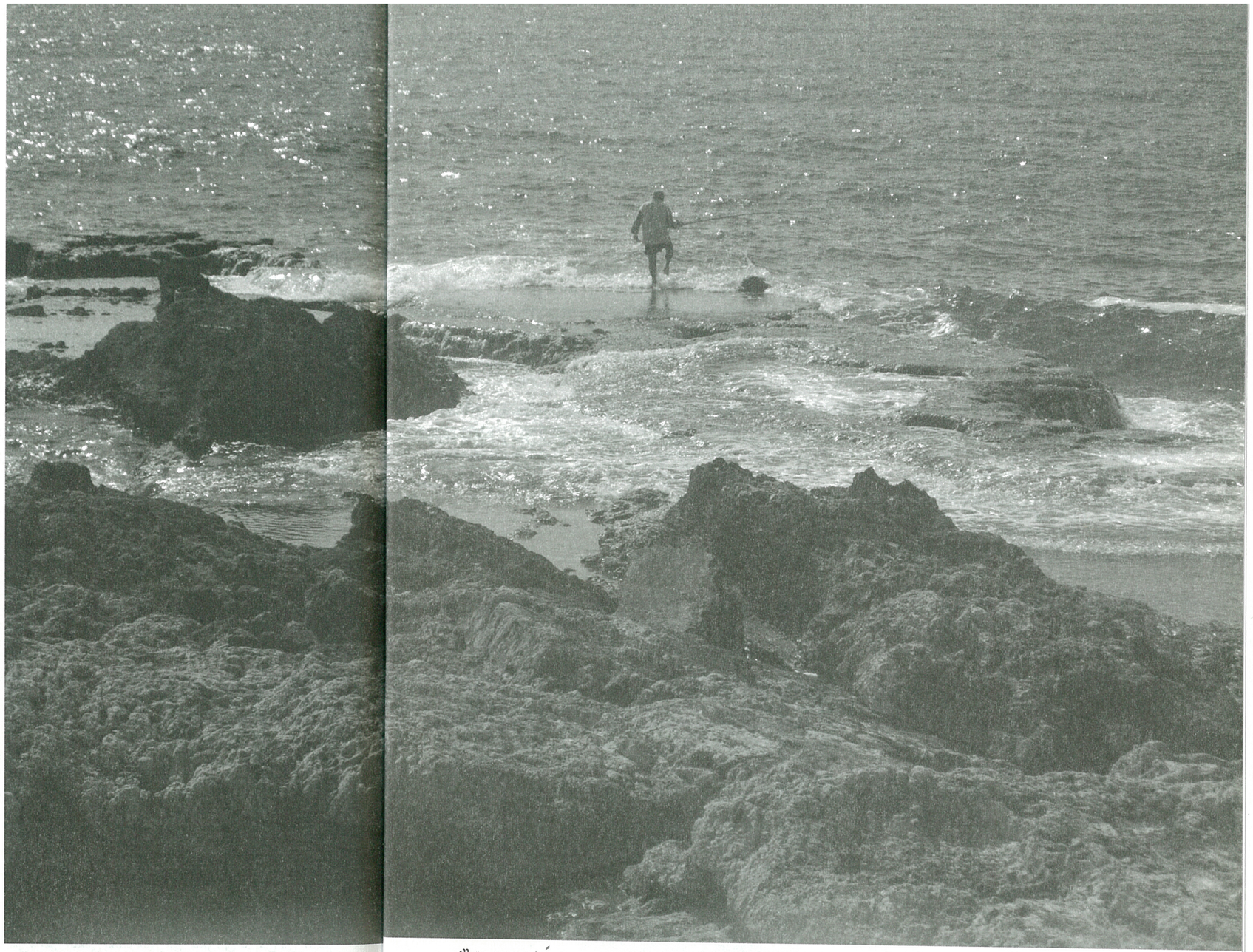

الدفتر. الكنكة مغطاة بطبق فنجان. بالتدريج تتحول عيني عن الحمّام العسكري لليسار إلى الجهة الشرقية، إلى الجبل. تمسح الخليج بحنين بارد. «لم أولد على قمم الجبال، لكن البحر كان مقصدي منذ اللحظة الأولى»*. يا نهار أسود.

من بعد خروج إسرائيل، خلال ١٩٨٣ –هكذا ستروي لي "س"– تمكن جيش "ميشيل عون" من بيروت الغربية. انتشر الاعتقال والامتهان. حظر للتجوال شبه دائم. سكان «راس بيروت» –حين يتطلعون من النوافذ– تمسح عيونهم نفس الخليج من نفس الزاوية، لكنني لن أفهم إحساسهم أبداً. أيام رئاسة "أمين الجميل"، بالذات بعد «انتفاضة ٦ شباط»، ثمة مسلحون مهمتهم تعطيل الحياة في المنطقة. يروعون سكانها المسيحيين خصوصاً بهدف تأكيد انقسام البلد نصفين (لا يجب أن يبقى مسيحي في «الغربية») –«ترسيخ الرقعة الديموغرافية» لصالح المزيد

من التعبئة– ويقطعون عنها الخدمات والكهرباء. سكان «راس بيروت» يتطلعون –مثلي– إلى الجهة الأخرى من الخليج، إلى الجبل، حيث أضواء «الشرقية» دليل على سير الحياة... صوت المغنية «المزة» – تتكلم – من بعيد... لا يملكون سوى الانتظار.

أرجع للنظر في الدفتر. المخرج الفلسطيني قال نكتة لم أفسر منها سوى شهقات الآخرين. أضع أشيائي على الورق المتناثر حتى لا يطيّره الهواء. ثم أغمض عيني لحظة. لم تعد «ساحة البرج» تتقافز في رأسي مثل الأمس، لكن شيئاً أعمق من الألفة السكندرية ينفضني. أتأكد أن اللقاء بمهرجان المعارضة شقلب أشياء في العميق. وحين أظلل عيني بيدي لأرسل نظرة إلى الجبل –بلا أدنى مبرر، كأنني جئت إلى هنا من هناك– أشعر، لأول مرة منذ صحبة المدخنين في مطار القاهرة، أنني بصدد سفر حقيقي.

"س": من «ساحة البرج» لـ«صبرا»

«أوكي» Ok – أقول لـ"س" – «من شوية كنت عارف أنا فين». الشمس تحتضر خلف تمثال الشهداء. «دلوقت مش فاهم أي حاجة». تشدني من ذراعي وتسرع. «شو»... النشيد الوطني عال لدرجة أنها لا تسمعني. «ولا شي» – أول محاولة لاستخدام الكلمة – «شعب واقع». ونضحك. بدأ الجبل يتلألأ من بعيد. «هلّق بنشوف». أصبحنا ضمن الكتلة البشرية.

داخل مستطيل مسوّر حول التمثال خيام شباب المعتصمين. يقيمون هنا منذ مقتل "الحريري". يمثلون طوائف وأحزاباً مختلفة. تتجاور معتقداتهم على تناقضها. الجهل بالآخر لا يعنيهم كثيراً. "س" تجفل. لبنان للجميع. الشيء الوحيد المشترك مطلب انسحاب سوريا وإقامة انتخابات، الأمر الذي لا يعني أن هناك حزباً سيفوز على نظرائه ويحكم (هكذا أخبرني أكثر من واحد في محاولة شرح النظام السياسي). ثمة تركيبة معقدة من الولاء الطائفي والتوجه الأيديولوجي والديمقراطية المجتزأة على نطاق إقليمي.

بين يوم وليلة سيختفي العساكر والعمال غير المصرحين – تخلو البنايات المقصوفة والأخرى غير المكتملة من الفقراء، كذلك المخيمات الفلسطينية – وتُزال صور "بشار" وتماثيل "باسل" تحت ستار الليل (لم يعد الأخير على صهوة جواده في طريق الشام). لكن أحداً لا يفكر في صوغ برنامج يمنع حدوث تصادم. لا شيء أكثر من «البازار» bazaar الوطني والمطالبة بـ«الحقيقة».

لا شيء غير التغني بحب مليادير سعودي لم يكن في الحكم عندما قتل ولم يبدأ التحقيق في قتله. «يا زلمة»... ثقل الرغبة في «الاستقلال» يمحو ضرورة حل النزاعات.

"س" متوترة. يدها في يدي ونستمر في «البرم». ثمة مستطيلات أخرى حول الضريح وفي الساحة الخلفية باتجاه الشرق. الحوائط مرسومة. يبيعون أعمالاً فنية ومنتجات مزارع و«تي-شيرتات» T-shirts. بعدي لا أفهم – باستثناء "إميل لحود" – ماذا يعارضون... مع حلول الليل نشتري

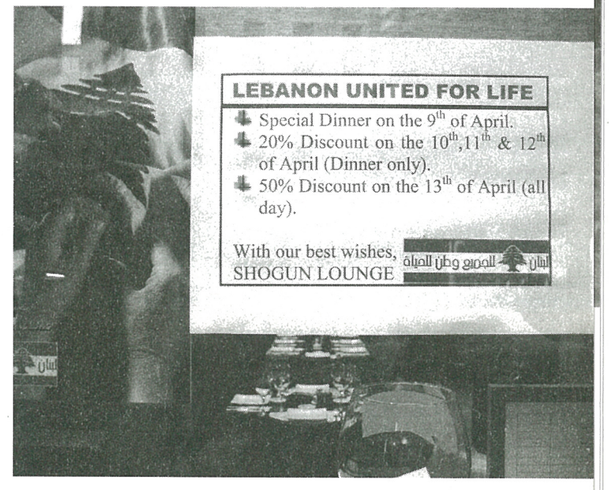

عزيز طالب. بيروت، ١٩٨٤

«كارت بوستال» cartes postales هي عبارة عن صور المنكوبين. البرد يدخل عظمي. أهالي المخطوفين مجتمعون على جنب. نشتري «تي-شيرت» مكتوب عليها «تنذكر ت ما تنعاد».

وأنا ألبسها أحتاج أن أذكّر نفسي أن التاء اختصار «حتى».

الساحة تنقلب مشهداً ملحمياً بالظلال على التراب والناس غادية. رأس التمثال تواجه نصف قمر. «كدا ولا كدا؟» السماء أزرق مستحيل. من أين هذه الرغبة في البكاء؟ باتجاه «ساحة النجمة» ننفصل وقتياً. بلاط الحصى يلمع في الضوء البرتقالي. العلم الذي يرفرف مختلف لكن الدبكة تجذبني. (شيء في الوجوه سيذكرني بصورة «سيرِيناد» serenade لـ«الكتائب»: فتاة تعزف جيتاراً، الجثث تحت أقدامهم، يضحكون... ربما «الحفلة» التي تحدث عنها "ديفيد هيرست" David Hirst في أكثر من موضع...) أذوب أمام المشهد.

العنف الكامن في الحركة لا يوقف الانهمار. النغمة عودة الغائب من عروبتي. لم أنتبه حتى لحقتني "س" أن الأرزة المحاطة بدائرة ومن تحتها عبارة «القوات اللبنانية» على خلفية بيضاء تعني شيئاً محدداً. الآن ترفرف في محيط وجهي. طرفها يحتك بحاجبي – "س" تلفت نظري لأن ثمة محجبات يتفرجن – بينما الأزرق يأخذ في السواد. الليل يزامن اضطراباً مطلقاً في المشاعر. الغائب من عروبتي مخلوق المراهقة الخائن الذي عاون الإسرائيليين عن سفك دماء عربية. ذلك الغريب الذي يكرهني. اللبناني دون أن يكون عربياً... لا مكان لساقي في هذه الدبكة. سوادي وحده سبب للبقاء خارج الدائرة...

«يحصل إيه دلوقت لو ولّعت في العلم»؟ القداحة في يدي. أبحث في جيبي عن سجائر. «تنقتل» – الصوت يعلو – «محل مأنت واقف». أحدهم يحمل الآخر على كتفيه كقائد فيلق من سلاح الفرسان. أقترب غريزياً من المحجبات. خيول تغير على وطنيتي. و«محروماً من الاتصال ببقية العالم، لأول مرة في حياتي، شعرت بنفسي أصبح فلسطينياً»**.

«الحمرا» والآخرون

أول ليلة في بيروت. لا أعرف أن رغبة البكاء ستبقى. مع الوقت تمتزج وتتعلق بالفضول. لا تتحقق. الدموع تصمد أمام الحصار تماماً كالفدائيين في المخيم، مع أن القصف لا يتوقف لحظة: لا صحبة الإيرانيات العجائز ينتحبن على مقام ثان لـ"سيدنا الحسين" (كما قد عبرنا الحدود بعد الانسحاب مباشرة، فدخلنا الشام مثل مجرمي الحرب) ولا في ضريح "الشيخ محيي الدين" (حتى عندما كررت العبارة التي أعرفها في قلبي -«كل ما عندك فهو منه وقد حجبك عنه فيه بنفسك، فله انظر، لا للحجاب»- لم تنزل ولا دمعة)...

لا في باريس صغيرة تدعى «الأشرفية» (هناك «بوسترات» posters "بشير" تجعله قديساً على الحيطان) ولا وأنا أصلّب في «كيسة الروم» قبالة البرلمان اللبناني (أن أستعيد شيئاً مألوفاً عند خروجي من أسواق «فرجن» Virgin Megastores، حيث بلغ الاغتراب «السوليديري» ذروته، لا أعرف لماذا فضلت المحل البيزنطي على «المسجد العمري»)...

لكن شيئاً من كل هذا لم يجعلني أبكي.

وتساءلت عن السر وراء الدموع وانحباسها. لعلها صحبة "س" كنموذج لهذه المدينة. دائماً تائهة في الهدايا ومواعيد العشاء. لعله البعد المفاجئ عن أشيائي. أو استثمارًا جديدًا للعواطف في مشروع وهمي. أود لو أمسك شيئاً في يدي. دليلاً. أي دليل.

بالليل أنطرح على فراشي بفندق «مايفلاور» Mayflower Hotel، بين «الحمرا» و«بلس» Bliss Street، أتقلب في أنحاء السرير أنتظر الدموع. أتمشى للحمام وأرجع. لا شيء. أفتح الدفتر وأغمز للقلم بعيني. الصفحة خالية. أصوات الشارع مربكة وبعيدة. الوحدة أمواج. أين "س"؟ متى؟ ولماذا؟ كل شيء مهم جداً. والوقت أهم شيء.

بين صور المنام والأرق المهلك يصفو المشهد تدريجياً: رغم الأداء المتمدن -بالمقارنة مع مصر- لا يمكن أن تكون هذه مدينة. أي مدينة فيها الاجتماعيات بهذه الكثافة الدرامية، ارتباطات الحضور، وتبادل الأخبار. الجنس يكتسب أبعاداً أسطورية، كذلك طقوس الأكل والارتداء. منطق الاستعراض يحكم كل شيء، من تبادل المشاعر حتى إدارة الأزمات. المشكلة أن شيئاً من الحنان لا يبقى سوى «تقبرني». البهجة عموماً تختزل إلى «بيي شو حلو». و«العمى» أقصى ما يمتد إليه الاعتراض. «ولو»... أن تبدو مهذباً أهم من أن تشعر بالمودة. كذلك أن تتفق -قبل أن تكون ثرياً- أو تعتنق دون أن تمارس القناعات...

أي مدينة بمثل هذا الصغر: لا تكاد تلف بالسيارة، من أبعد نقطة في «الأشرفية»، حتى تجد نفسك في «ساحة البرج» من جديد. وإذا تركت وجهاً في «الروضة» قاصداً مقهى «لبناز» Lina's مرجّح أن تصل فتجد الوجه ذاته يطالعك هناك. أي مدينة لم يعرف سكانها الوحدة بالدرجة التي تقنعهم أن لا شيء يهم، ولا حتى الوقت يهم، ولا الآخرين... غفوت. وفي الصباح مضيت ناحية الجامعة الأمريكية مجدداً دون أن أبكي، ودون أن أتهم بيروت بالريفية ولا حتى بيني وبين نفسي.

كنت متحمساً للبشر والأماكن. مأخوذاً بعروبة عجائبية تشاغلني منذ المرور من بوابة المطار. والفضول ينفض جسمي تقريباً طول الوقت.

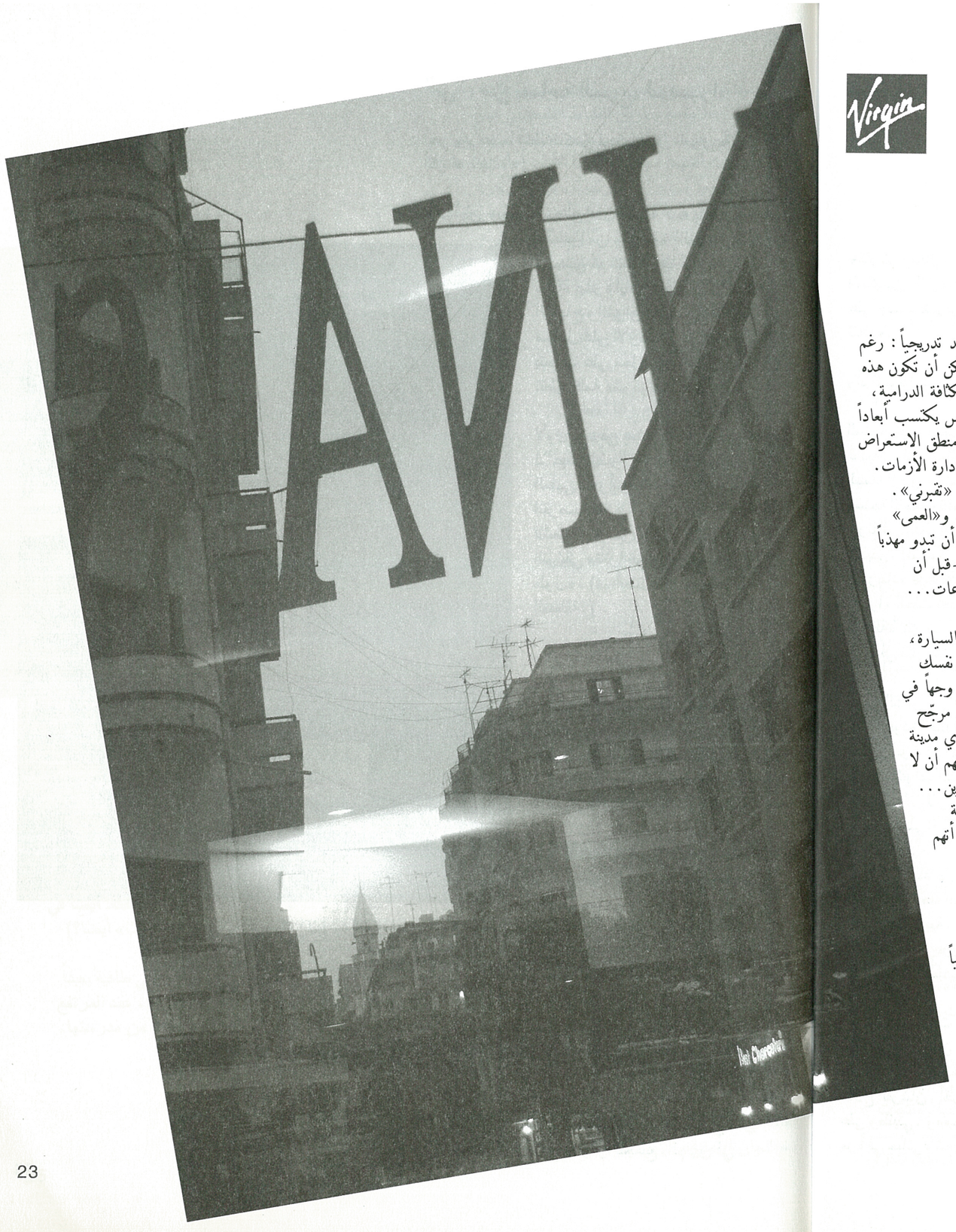

"س": من «ساحة البرج» لـ«صبرا»

آخر يوم عندما أخذنا تاكسي لـ«كورنيش المزرعة»، لم أكن قد بكيت.

كنت أظن – عن حق – أن هذه المنطقة أشبه بالقاهرة ودمشق من «غربية» "الحريري"، وأذهلني كم كنت غريباً في وطن عمره عشرة أيام. هنا لا تطاردني نفس الأشباح. الشوارع أوسع وأفقر. ثمة مخابيل على الأرصفة. البقال سمين. يتعرف على محل سكن "س" بمجرد أن تنطق كلمة «شوكولا» chocolat.

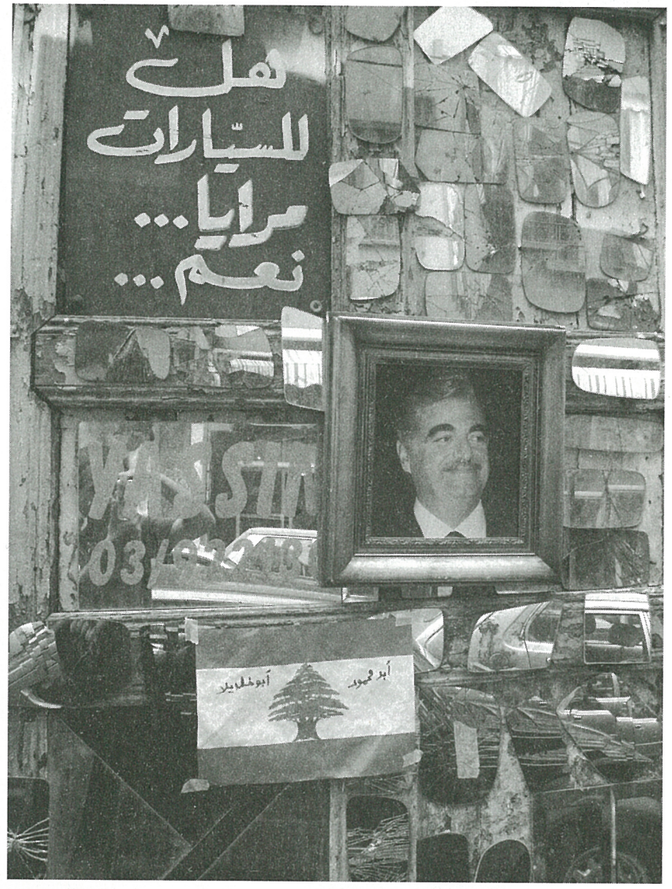

لأول مرة في حياتي تطمئنني صورة لـ"عبد الناصر"، والحلاق الجائل في المقهى بـ«رأس النبع» – هذه الأشياء انقرضت عندنا، حتى في الأحياء الشعبية – وذكرى وجه المخرج التوثيقي متأثراً بلحن «أنا لك على طول». (هو أيضاً يسكن في هذه المنطقة.)

ولازلت لا أبكي.

يذهلني كم كنت غريباً. وللمرة المئة، ربما، يفجأني نفس اضطراب المشاعر الذي انتابني أمام دبكة «القوات» في «ساحة البرج»، تحت أعين «الشهداء».

لعل الأعصاب تعرت قليلاً من قلة النوم وكثرة الحراك. غريبة سعادتي ليلة جلوسنا في بار «المايفلاور» والحكي شارف على الانتهاء. شيء يرف. القهوة وعلبة سجائر «جيتان» Gitanes. للنادل ذيل حصان ينساب بسلاسة على «التي-شيرت» الأبيض. أشقر لدرجة أنني أستغرب العربي من فمه. و"س" تكشف لي، لأول مرة، أن شيئاً اسمه حرب المخيمات.

وقت خروج "عرفات" إثر الإجتياح الإسرائيلي في ١٩٨٢ كان السلاح متوفراً للجميع. لم يبق في

المخيمات، من بعد «صبرا وشاتيلا»، سوى فتات فدائيين. وبعد سعيه لتطويق النشاط الفلسطيني عبر الموارنة في حرب السنتين، يستشعر «القائد إلى الأبد» في ميليشيات الشيعة مجالاً لتطويقها الآن. («أمل» –هكذا قال لي "محمد سويد" – «ترجمة حقيقية للوجود السياسي السوري» في لبنان.) «عودة الندل» عنوان فيلم الحرب من بعد ١٩٨٤. "الأسد" هنا مرة أخرى لينتزع المخيمات أو يسيطر عليها. يطعمها خراءً على كل حال. وكذلك – فيما يتضح – مع زعماء اليسار: إما الاستقطاب أو الهلاك...

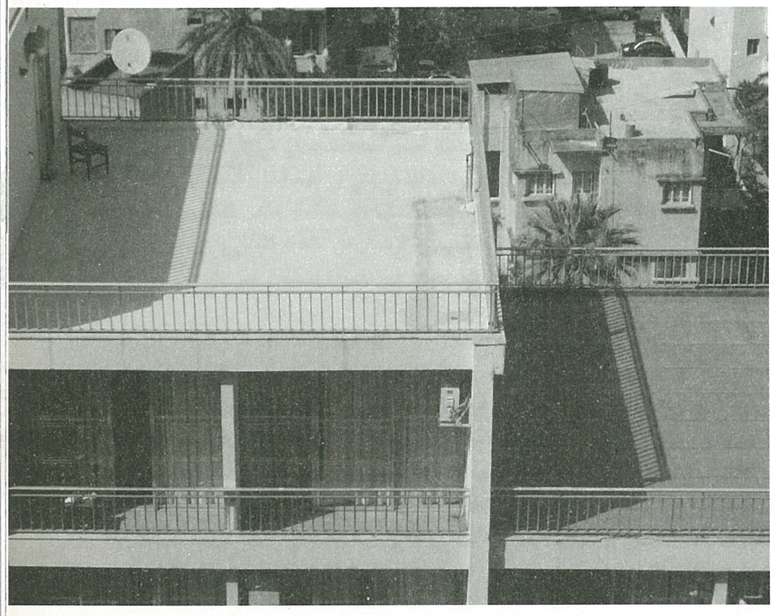

أذكر كوب الماء المثلج وأنا أخط ملاحظاتي في الدفتر، مع صوت النادل – من المنتظر إدراك أن هذه اللكنة بيروتية – يدردش مع رجل وامرأة على البار. الزجاج أبيض فضي معرّق باللالون. إدراك التسلسل يمتزج بالتحمس للمشي مع "س" إلى بيتها في النسمة، بعد أن ننتهي.

ثم العودة وحدي عبر الشوارع الصماء...

اختطاف وتفجير الأجانب –تقول– جعل «حزب الله» شيئاً مهماً، بالإضافة لبرنامجه الاجتماعي. بلا مبرر سام، أصبح يتنافس مع «أمل» على تمثيل الشيعة. اكتسبَ قابلية لتكفير المجتمع المدني. هو الآخر «عقد عهداً مع الشيطان».

أيامها زأر «صانع الانتصارات العربية» ثلاث مرات. (كان قد انسحب كشبل أمام الضبع الصهيوني خلال ستة أيام في يونيو.)

مرة عندما كلف «حزب الله» باغتيال قادة الحركات التقدمية: «جده لـ"ربيع مروة"» كما تخبرني "س" حين نلتقي بالأخير، قبل أن نشاهد مسرحيته.

ومرة عندما وعد "نبيه بري" بزعامة الطائفة الشيعية شرط أن «يؤمّن» له المخيمات. سيظل الفلسطينية يقاومون ثلاث سنوات بطولها – الفدائي يموت وراء الفدائي – بعدها يتأسس، في المخيمات كلها، حكم «اللجان الأمنية» التابعة للمخابرات.

ومرة عندما «طَقَّش» هذا في ذاك فأوقد شيئاً اسمه حرب الأشقاء، حيث يقتل الأخ أخاه فعلاً، لأن أحدهما «حزب الله» والآخر «أمل».

(أعقاب «انتفاضة الاستقلال» – مليون ومئتا ألف في «ساحة البرج» يوم ١٤ آذار، بعد شهر بالضبط من يوم "الحريري" – سيجتمع الطرفان على التحالف مع سوريا دوناً عن كل الآخرين. هكذا فعَلا أيضاً في ١٩٨٩. لبنان للجميع. ولـ«حزب البعث» أيضاً؟)

الجو صحو في طريق الرجوع. رأسي طافية بعيداً عن جسدي. غداً أرى محل المجزرة. عند المرتفع أستحضر إحساس "س" وهي راجعة من مدرستها. تتطلع في السيارات بترقب...

ترى أيها تنفجر الآن؟

***

«إذا نظرتَ إلى جثة عن قرب تستشعر ظاهرة غريبة: غياب الحياة في ذلك الجسم يتوافق والغياب الإكامل للجسم نفسه، أو بالأحرى لانسحابه الدائم. تشعر أنك مهما اقتربت منه لن تتمكن أبدا من ملامسته. هذا يحدث عندما تنظر إليه بإمعان. أما إذا أقدمت على حركة في اتجاهه، قعدتِ إلى جواره، حركت ذراعا أو إصبعا فيه، يصبح – فجأة – موجودا، ويكاد يكون ودودا معك»**...

مرافئ

شاشة الكمبيوتر تومض حين تسرب أصابعي إليها الكلام. لابد أن التهاباً أصاب عيني، إن لم يكن تيار الكهرباء مضبوطاً على نيوءة المشاعر. أو لعل الذكرى تجعلني أنا والشاشة أكثر حساسية. بعد قليل سأنهض لإعداد المزيد من القهوة ثم أرجع للأوراق المنثورة على السرير. قلبي على ترابيزة بار «مايفلاور». وطن ثان بهذه السرعة؟ لا يمكن إنكار تأثير السفرة على كل حال.

وحشة البعد توجعني فعلاً. وهويتي مرهونة على «الكيبورد» keyboard.

***

الخناق على التليفون، وراء أعالي المحيطات.

عشيقتي بيروتية الأصل تجاوب اتهاماتي بمثلها. وحدها المحقوقة. تغار. أن تمنحي علاقتنا اهتماماً أكبر. تاريخك. نعم؟ «أنا بفرجيك». واقف في «الزمالك» وحدي. دكان زهور وسورة يوسف (أتفاءل بها منذ أخبرتني أمي بسماعها قبل أن تحبل بي مباشرة، وكان الحبل، بالنسبة لها، قد أصبح شبه مستحيل). للمرة الخامسة، ربما، تقفل السكة في وجهي. الدنيا تظلم على سلم البار. كأن البقاء رهن رضاها.

صحبة "راشد" وفتاة بلهاء، زرت "ن" للمرة الثانية. تلف الحشيش وتضحك. أنا و"راشد" مثل صبيين هاربين من فوق أسوار مدرسة ابتدائية. سيعود لباريس خلال ساعات. الفتاة بجواره. يتحايل على القلق بالاستجابة لهياجها. قد أحبها فعلاً، سيقول. أنا أفشي أسرارنا الطفولية لـ"ن" فتضحك أكثر. تحدّث الفتاة بحيلة تمكنها من الإستقلال بحياتها. والأخرى شربت كثيراً. تنسطل فنضطر أن نوصلها لـ«المريوطية».

على «محور ٢٦ يوليو» تتلصص على شاشة «موبايلي» mobile phone من المقعد الخلفي. في الرسالة، أسأل "ن" إن كانت تريد أحداً يمضي معها الليلة. الأخرى تحذرني: «عشان ما يبقاش شكلك خول في الغربة». في محطة البنزين أنزل لشراء سجائر. رد "ن" حياة أو موت. أعود للمقعد مختالاً.

مكالمة طويلة لنيويورك و"راشد" ينتظرني في السيارة، في طريق الرجوع إلى بيتها.

أظن –بعد لقائي الثالث أو الرابع بـ"ن"– أنني عملت أحلى واحد في حياتي. تظل الفرحة بها مرتبطة بقطة الفتاة البلهاء. لاقيناها للمرة الأولى والأخيرة، ليلتها. كانت على حجر "راشد" وسط الحقول عندما خرج خال الفتاة بالبيجامة. فرحتي بـ"ن" تظل مرتبطة بقبلة غير متوقعة أعطتها الفتاة لـ"راشد" قبل أن تختفي في ذيل خالها وراء الفناء. كنا صامتين ونحن نستدير باتجاه الترعة...

قلبي على الترابيزة

رحت وجئت. ظلي في الأماكن. كدت أنسى نفسي تماماً. «وفي الحمامات العامة تركت تذكارات كثيرة، لا تدل على أحزان النهايات»*. منذ جئت، بلا توقف، أبحث في حرب لبنان. أتصفح الكتب والمجلات القديمة. أجلس قدام الإنترنت. "ن" أعطتني الأربع «دي-في-ديهات» DVDs التي أنتجتها «الجزيرة»: برنامج وثائقي عن حرب لبنان. أرقد في السرير أتفرج، القلم والدفتر جنب يدي.

واحترت في توجهاتي السياسية. دائماً الهوس بأثر رجعي. هذه الأيام، مثلاً، أشياء تسترعي الاهتمام... لم أكد أسمع بها أصلاً. مظاهرات «كفاية» على بعد ثلاث دقائق من مبنى «الأهرام» وأنا أغازل زميلاتي في المكتب. انفجر شاب آخر – ليس أبعد كثيراً – ولم أنطق. أثناء جنازة "عرفات"، العام الماضي، كنت أتبرز في حمام الدور الأرضي. لم أسترجع "أبو عمار" قبل شهور من تاريخه –جربت التعاطف معه، لأول مرة، بعد أن أصبح ميتاً– الأمر الذي يطمئنني حيال الأحداث الأخيرة: لابد أنني سأعود فأهتم. وكوني لا أعبأ بغير ارتفاع أعداد «الكتائب» من ٣٠٠ عشية إنشائها إلى ٤٠,٠٠٠ خلال ثورة ١٩٥٨ لا يجب أن يشعرني بالذنب.

تداعيات الاحتلال الأمريكي للعراق، الوضع المتراوح في غزة، انتخابات لبنان المرتقبة (كنت هناك، والله العظيم كنت هناك)، حتى تعديل الدستور المصري: لا شيء يحركني اليوم قدر تفاصيل السبت الأسود.

بين ١٩٧٠ و١٩٧١ – هذا ما أشعر به من وقتها – كنت أتكون على أكثر من مستوى. عوامل غير محسوبة بالمرة دخلت في صدفة وجودي. مكتوب لها أن تتراءى لي الآن.

***

بعد «المرواح» – فجأة – أشعر أنني بعيد. شيء ينطفئ في علاقتي بالمكان. يأس. أو انتظار أطول مما ظننت. في مكتب «السفير» صحفية شكلها مألوف قالت لي إنني لن أفهم أبداً. (كتب "يوسف إدريس" – في رواية ثقيلة اسمها «البيضاء» – «الزمن القاتل. نهاية الأشياء».) هل هكذا يفيق الإنسان من «الحلم اللبناني»؟ أين دوري في الاستعراض؟ القومية، عبارة غير مفهومة بالكامل على «تي-شيرت»؟

***

وقعت في غرام "خالد الكردي" من أول مشاهدة لـ«سينما الفؤاد». وقعت في غرامه كما لم أقع في غرام امرأة في حياتي. لم يمنحني "محمد سويد" متعة مشاهدته يرقص – قال لي في «الحمرا» إن مشاهد رقص طويلة لم تُستخدم، على أن "الكردي" نفسه أراد أن يكون الفيديو ترويجاً لمواهبه في الرقص الشرقي، الشيء الوحيد الذي يبقيه حياً – لكن كل نفس من أنفاسه كان يبكي قلبي. ومع أنه حرمني من أشياء كثيرة، بعد أن أطفأت الجهاز، لم تزايلني الرغبة في تقبيل "سويد" مدة ثلاثة أيام.

لم يكن صعباً أبداً تصور أن يعشقه رجل. عشق الأب لـ"إلكترا". المازوخي للسوط. ثمة غياب تام للتصنع. وكرامة. الحفاظ عليها – «بهيك مجتمع» – مستحيل. جال بخاطري وأنا أفكر في الحرب أن أمثال "الكردي" هم – في النهاية – أنبل بني آدم معاصر. يخاطرون بكل شيء لصالح السؤال الحقيقي الوحيد. وبنفس المنطق الذي يجعل القضية الفلسطينية مأساة رجل يشعر أنه امرأة – كل طموحه أن يحصل على نقود كافية لإجراء الجراحة – تجدد إقبالي على رؤية بيروت.

الضحكة، الهمسة، اللحظة التي تسبق البكاء. طريقته في وضع ساق فوق ساق... كنت أستعيده وهو «يتمكيج»، يعد السلاطة، يستعد للخروج في هيئة «شاب ناعم» – «عرفت عليّ كيبيف» – أو يقرأ رسالة

كتبها لحبيبه الغائب وقرطان هائلان يتدليان من أذنيه...

مررت بسكنه فعلاً - هنا كان يتقاذف الكرة مع أولاد يلعبون، يبدو صغيراً معرّضاً بلا هوية جنسية - لكن مشاريع إعادة البناء كانت قد حولته لموقف سيارات مرتفع كالربوة عن مجرى الطريق. وانفطر قلبي حين سمعت أنه عمل العملية بالفعل، ثم جن تماماً. وانتحر.

رمزي حيدر، بيروت

"س": من «ساحة البرج» لـ«صبرا»

يتوقف "جان جنيه" عند ضيق الأزقة. دعك من أن الأعضاء متناثرة والدم متخثر وأسود. عرض الحارة الواحدة لا يسع جسدين. وثمة حوائط تهدد من لا يريد أن يدوس على الجثث بالسقوط. «الخوض في شاتيلا وصبرا أشبه بدور "حجلة"... أخطو فوق الأجساد كما يعبر الواحد بين هوة وأخرى»**...

من «كورنيش المزرعة» إلى «الملعب البلدي» وحتى حي «الفاكهاني» مروراً بـ«المدينة الرياضية» - الكاميرا في يدي وأنا أصور - لابد أنني كنت أتوقع بوابة. ضللنا الطريق و"س" لا تريد أن تستدل. سيتبعوننا، تقول، وربما نتعرض للاستجواب. في المخيمات فقراء ولاجئون من جميع الأجناس العربية، لكن أحداً لا يزورهم بغير غرض محدد. وإذا دخلنا مكتب اللجنة الأمنية لن نخرج إلا بمشكلة كبيرة.

حرب المخيمات طازجة في رأسي وأنا أتابع تدرجاً طبقياً لن يدرأ عني صدمة الوصول: كانت الشوارع تتفرع وكلما تفرعت ضاقت وازدادت فقراً. أطياف الشهداء تتراوح على رمش عيني. الفكرة في الموت دفاعاً عن الوطن. والوطن ليس سوى «شانتي تاون» shanty town يضم جميع أجناس الفقراء.

على الرصيف معاقون ونيام. عجوز يحمل عصا ووجهه للطريق. يرفعها قليلاً ثم يعتدل ليمشي في اتجاه، لكنه لا يأخذ خطوتين حتى يقف ليرفع العصا ويعود يمشي في الاتجاه المعاكس. «فسبا» تنحرف بشدة في خروجها من الزقاق. وجماعة عمال مصريين يهرولون من جنبنا ضاحكين...

حتى الوجوه تغيرت، والملابس.

«عيشتي متل قزازكل لحظة فيها تنكسر.» - ريس بيك

قلبي على الترابيزة

اليوم أكتشف أن الموضوع أكبر بكثير من زواج أبي وأمي (سيكون عليها أن تنتظر خمسة أعوام حتى تمرر رغبة الإنجاب خلال حاجز إرادته). الموضوع لا يقتصر على موت "عبد الناصر" (أبي واحد ممن تنفسوا الصعداء) ولا ذيوع «أخلاق القرية» بعد أن حل محله "أنور السادات" - كتب "صلاح جاهين"، قبل أن يقتل نفسه، «بعد الطوفان، إيه اللي في الإمكان» - ولا حتى تخلّي الشعب المصري، إجمالاً، عن القضية الفلسطينية. إنه أوسع من بريق بيروت

كألف ليلة عصرية للجنس وكسر التابو...

البنت التي وقعت فيها قبل ثلاثة أعوام. أبوها عاطل وأمها تخدم في البيوت. لم يُعقد قرانهما أبداً. أحياناً تحكي لي عن ملابس أمها القديمة، ملابسها «الرِوْشَة» الكاشفة، ثم مجيئها الملتبس - قبل مولد حبيبتي الأصغر مني ببضع سنين - من مكان إقامتها الأول، من بيروت.

مرتع أنوثتها ودلالها، ومجال من الطبيعي أن تتطلع له ابنتها من بعيد. أتت بعد طلاقها من «زوج» غير الأب الحالي، كان قد أخذها للشغل معه من ضاحية شعبية. فيما بعد سمعت من المخرج التوثيقي ذاته - «شكلك عين الحلوة» - أن المرأة المصرية ارتبطت في مخيلة لبنان بالدعارة، منذ «العهد الشهابي» تقريباً، وأن قدرتها الجنسية مضرب الأمثال لليوم. على أي حال ظل فُجر حبيبتي مرتبطاً بهذه المدينة، رغم أنها لا تعرف شيئاً عنها ولا من لغتها : همسها الفاحش في أذني، الطريقة التي تفرّج بها ساقيها، نظرة عينيها بعد الإيلاج بثانية، حتى الرائحة المدوخة التي يولدها هياجها. كله بيروت...

وأخطر من التطلعات الضحلة لـ«الحركة الطلابية» :

لا أراك الله يسار السبعينات في عزيز. البيرة والكلام الكبير. الغرام المسيس. الزعامة. سطوة الانتحار. نموذج التشذر العاطفي واللاأخلاقية في رأسي. إعراضهم غير المبرر عن الحشيش مجرد مثال للعمى الأيديولوجي بامتداده. قوة الجهل في الحديث عن أشياء من المفترض أنهم يعرفونها.

أحياناً أحس - في الوظيفة، في الصحافة، في الممارسة الثقافية - أن سر تعاستي في الحياة هو انتشار ونفوذ هذا النموذج. لم أطق منهم - وهذا المدهش - إلا الذين شاركوا مباشرة في المقاومة الفلسطينية. أقول لك الحق : في السياق المصري - على الأقل - جربت فيهم كل أنواع ودرجات الكراهية. لم أكره أدباً، مثلاً، قدر كراهيتي لجيل السبعينات، ولا أحسست بالنفور من الماركسية مثلما استقبلتها من أفواه أبنائه. كابوس حقيقي، ولاتزال خيوط المودة مربوطة. أكيد أنني سأصحو ذات يوم، وعندما أعبر شوارع «وسط البلد» يقظان لن أرى أحداً منهم على النواصي.

***

الموضوع أن أيلول الأسود من شأنه أن ينقل مركز الفدائيين من الأردن إلى بيروت الغربية - مرة أخرى صاروا أسياداً عسكريين في غير أرضهم، صاروا جبابرة - الأمر الذي سيدفع «الكتائب» لمزيد من التعاون مع إسرائيل. وكان "حافظ الأسد" يقوم بحركته التصحيحية في نفس الفترة، فوضع "سليمان فرنجية" في الحكم، كما فهمت، ليسيطر على النشاط الفلسطيني هناك.

(سيعود ويدخل الحرب لصالح الموارنة ضد الحركة الوطنية، بعد أن تتمكن ميليشيات الأخيرة من سبعين بالمئة من مساحة بيروت - الجيش السوري يتدخل لصالح «الجبهة» بحيث تتمكن من تطويق «تل الزعتر» ثم اختراقه وجزر الساكنين - تُصدّق؟ ومرة أخرى، وبعد أن يساند «أمل» في ضرب «برج البراجنة»، مثلاً، وقت ينفلت "ميشيل عون" على الجميع بدعم من "صدام حسين"، سيحارب لصالح "سمير جعجع" و«القوات اللبنانية»، هكذا بلا خجل أو وخز ضمير.)

بين أيلول الأسود وموت "عبد الناصر" ثلاثة أيام بالضبط (ما كاد يتوسط بين "الحسين" و"عرفات" حتى وافاه الموت). وخلال شهر واحد من هذا التاريخ، سوريا تتحول إلى دولة مخابراتية.

قبل ١٣ نيسان - والميليشيات تعود للتسلح مثل فرخة دائخة - سيقول "فرنجية" لـ"الشيخ بيار" إن الضغوط العربية تضطره لإيقاف الجيش عن ضرب الفدائيين، إنه لم يعد هناك جيش تعتمد عليه «الكتائب»، وإن عليهم، من اليوم، أن يعتمدوا على أنفسهم...

"س": من «ساحة البرج» لـ«صبرا»

فجأة كأنني في حي عشوائي قاهري –أعماق «دار السلام»، مثلاً– مع فارق أن المعمار متهدم. كله ثغرات. هل هناك جير كثير في «شاتيلا»؟ كل شيء –في الذاكرة– أبيض. أتطلع فيما حولي بشعور يشبه الخجل. محجبات وأطفال حفاة. أطلال مبانٍ. قاذورات «بالعبيط». مشهدٌ مألوف في العالم الثالث – هكذا أطمئن نفسي – يثير شجناً محبباً أكثر الوقت. لكن شيئاً كدوامات شواطئ «العجمي» يسحبني إلى أعماق أخطر. الخوف من الغرق. في الطفولة، فشلت مرة بعد مرة في أن أسبح. الآن لابد أننا في «صبرا» – سأدرك أنه لا يعدو أن يكون شارعاً يحد «شاتيلا» من ناحية «جامع عبد الناصر» – لكن شيئاً لم يتغير سوى هاجس مفاجئ بضرورة إخفاء الكاميرا. وهجمة جديدة للرغبة في البكاء. هذه أفضل فرص تصوير –ربما– لكنني لا أريد أن أصور. لا أريد أن تكون معي كاميرا، أصلاً. لا أريد أن أكون.

«والآن، وقد اكتملت الحكاية بموت أبطالها، يحق للناس أن يعرفوا السر.» – إلياس خوري، «مجمع الأسرار»

القصف يخلط بتقطيع الأصابع في محل صغير يبيع أفقر «سوفينير» souvenirs فلسطينية – أساور بألوان العلم، «بادجات» "عرفات" Arafat badges، حلي على شكل «قبة الصخرة» – كلها مصنوعة بلا ذوق من أرخص الخامات. أن تموت لأجل وطن ليس سوى مخيم.

لحظة انسد الطريق – كنا نوغل في أزقة أضيق وأقصر – واجهنا شيء كالباحة. أعمدة ونتوءات. ثمة بورتريهات في براويز مذهبة مصطفة في دائرة حول عامود مركزي. طرفها الأسفل على البلاط. أتطلع في الوجوه ذات السوالف و«الشنبات». (هل تشبه وجوه «عين الحلوة»؟) نظرات حادة. كأنهم يشدون الدنيا من ياقة قميصها، يسحبونها وراءهم... ويركضون.

وأنا كأنني أعرفهم. أعرفهم جيداً. صلة دم مبهمة تربطنا ولا مجال لأن أنكر الآن... صوت "س" نبرته اعتيادية تماماً: «هيدي المقبرة تبع شهداء حرب المخيمات». أعود للتطلع في الوجوه. الفاتحة تتعثر في فمي، مرة بعد مرة. لا ألاحظ أن الدموع انبجست وأنا أحبسها حتى نلف لنعود.

على الشارع المؤدي لـ«الغبيري» –حد الضاحية الجنوبية– هدأت أعصاب "س" قليلاً. لاتزال تتحاشى لفت انتباه اللجان. نعبر نصبات لبيع منتجات مختلفة. كلها أشياء رخيصة، بالية. يعلوها الغبار. «سي–ديهات بورنو» porno CDs مقرصنة. أتوقف لشراء اثنين. شاب أشعث في قميص برتقالي فاقع. لا يوجه لي كلمة. وثمة رغبة لامعقولة في أن أناوله الكاميرا بدلاً من النقود. اللغة هجين خاص يشعرني أنني أجنبي يتفرج. أحمل «سي–ديهاتي» وأسرع. في هذه اللحظة –أعتقد– تخيلت الشباب يركضون في نفس الاتجاه.

عند مقبرة المجزرة نقف وراء السور في الفيء. «أبسط من كدا مفيش». وأحاول مع الفاتحة من جديد. أذكر أن "س" كانت تبرر رفضها لأن نعبر البوابة إلى الداخل بأننا لا يجب أن ندوس على عظام الضحايا – دفنوا بلا أكفان أو شواهد – وكنت أتطلع إلى لافتات هي صور بعضهم قبل الدفن مباشرة. وزهر أصفر وسط النجيل الناحل. وعيون امرأة عجوز في رداء أسود، تدور كالنحلة بين شتلة وأخرى.

أذكر أن "س" كانت تتضاحك –بعد ذلك– والعالم تتطلّع فينا. عيونهم مزيج من القلق والاستغراب.

لم أستطع أن أكتم أكثر.

قلبي على الترابيزة

ولدت قبل السبت الأسود بستة أشهر بالضبط، في السنة التالية على حادثة البوستة.

ولد وحيد، متأخر عن سائر أبناء العائلتين من جيلي بعقد أو أكثر، الأمر الذي أشعرني دائماً، وبشكل مأسوي، أن أشياء جوهرية فاتتني. فاتني مثلاً أن أرى تمثال "عبد الناصر" يتصدع وينفرط بعد هزيمة يونيو – الذين ساروا في جنازته، هل كانوا ينوحون الوحدة العربية؟ – أو أن أصفق لآخر حرب نظامية بين العرب وإسرائيل – حكاية العبور هذه، هل تبرر كل هذا المجد؟ – أو أن أتابع، وهذا الأوقع، صعود أسطورة الفدائي الذي عشقه "جان جنيه" وقت شاركه الحياة في المساحة الممتدة بين الحدود السورية–الأردنية والسلط، أيضاً في الفترة من أكتوبر ١٩٧٠ إلى أبريل ١٩٧١.

«في ربيع ١٩٧١» – كتب – «جمال حذق يشبع غابة تحييها حرية الفدائيين»**.

فاتني أن أرى "الشيخ إمام" يضرب على العود أمام عيني. أن أشاركه «كرسي» حشيش. أو أسمع صوت "نجم" يردد وراءه في «حوش قدم». كان لابد أن أذهب وحدي، بعد قرون مضغوطة، وأحاول أن أستحضر الإحساس مع

آخرين... وعيت وكانت المقاومة تقتصر على «حماس» و«الجهاد الإسلامي». عمليات تفجير الذات للراغبين في الذهاب إلى الجنة. ولا مجال للاختيار. أوسلو. "الشيخ ياسين". أين الفدائي ذو السوالف يرفع «كلاشنيكوفه» Klashnikov على يسار العالم؟

جئت بعد الطوفان بخمس سنين أو أكثر، بعد الانفتاح وموت العصب القومي وخروج المارد الأصولي من القمقم. وبعد اندلاع القتال في بيروت بستة أشهر بالضبط... «لا للأسف، لم أولد على قمم الجبال. وكانت طفولتي بلا حدائق. حين تركت أشباحي تسرح إلى البلدان البعيدة، وجدت الليل في شباك غرفتي. لم أكف حتى مللت مراقبة النجوم»*.

كان يجب أن أكون مع هؤلاء -مجرد مشهد تلفزيوني، للأسف- يمرقون بالمدافع على أكتافهم. الشوارع خالية. السجال من خلف جدران العمارات. «استغماية» أخطر قليلاً من مباريات «صَلَّح» الدائرة في شوارعنا المتكدسة، ودون أن يضطر أحد للاختباء: واحد من المجموعة يغمض ويعطينا ظهره، كفّاه حول رأسه في تشكيل مدروس يمكن التعرف عليه على بعد مئات الأمتار، ويظل حتى ينزل أحدنا بعنف على قفاه (نتنافس في ارتفاع صوت الصفعة ودرجة الاحمرار التي تسببها، الوجع يهيّجنا) ثم نفترق في جلبة قبل أن يكون قد رآنا. (عليه -لكي يتخلص من وضعه هذا- أن يعرف من منا ضربه.) كان يجب أن تكون الضحية جسماً مهترئاً ينفرك لحمه المحروق -حمامات الدم- بدلاً من وجه طفل يقول «مش لاعب» بصوت تخنقه الدموع، وردود أفعال المشاهدين ركضاً هستيرياً بدلاً من مجرد انتهار.

***

عشيقتي جاءت للقاهرة مرتين أثناء زيارتها الصيفية لبيروت. خناقنا أعنف. لا شيء يكفيها. «يعني أقلع ملط وأجري في الشارع»؟ كل أفعالها التي توجعني تبادر باتهامي بها. لماذا لم نلتق أبدا في بيروت؟ رفضت المجيء معي من شهور. أنت مريضة. أخرج من دماغك فكرة أنني سأعيش في هذه المزبلة. «أبشع مدينة في العالم». الحقيقة بلادكم هي الآمنة. استحم. لماذا لا تستحم. جسمك تملأه البثور...

أتركها وأبيت عند "ن". أكلم "س" أستشيرها - لا أخبرها بما أفعل - فتلتمس العذر لعشيقتي. الخوف الذي ينقش فرحتي بنيويورك يتكاثر. أشعر أنه سيغرقها، ساعات... فقط الجنس يرجع لي رغبة التفرغ للكتابة هناك... لا أعرف متى تأكدت فكرة أن المرأة رائحة. مهما تشابهت الخبرات الحسية، لحظة التلاقي تسكن هوية كل امرأة عرفتها، في النهاية، بالمكان الذي يخاطب أنفي. وهذه العشيقة بالذات...

لم تخلقي مثل أخرى لحسن الحظ. سأتعرف عليك متى شممتك في الظلام. وبمعنى جوهري أنت لست سوى رائحة بيولوجية فجة، رائحة فاضحة. تتجاوز الصوت والملمس والمشاهدة لتقترن، مباشرة،

بهياجك. تتولد عن جلدك كله، بحدة أقل. أمراضك ليست عضوية. فقط العطر يصبّرني.

***

«وسط البلد» أضغاث أحلام بالقياس على حيوية «الروضة». النظام والنظافة. قلت لواحد مثقف: كأن لنا مئة سنة نعاني من الملل. وهم -بحرب أو لا حرب- متحمسون. الوجوه والسلامات المصروفة لهذه الليلة، على خلفية من ذكريات العصاب. النوبي الأصل يذهب لأن اللبنانية شعب دموي. في رجعتي علقت عند «عبد المنعم رياض». المرور كالمدفعية الثقيلة. أبواق وصيحات. أن تمشي ولا تمشي. سيدة «البوجيهات» السبعة bougies. وفي عصر الغبار. أحاول بلا جدوى أن ألتزم بحارة. المشاة كالألغام على الطريق. يمين شمال لا يهم. ثمة إعلانات صغيرة يمررها القناصون عبر الشبابيك. أكثر من مرة يبطّل المحرك. يصيبون أذني. قال لي سائق تاكسي، ذات مرة: «والله يا أستاذ إحنا ما نازلين نشتغل. إحنا نازلين نحارب».

«الحمرا» والآخرون

«بن يونس» وبناية «جيفينور» Gefinor. ثم «الجميزة» و«الكرنتينا» و«المتحف». "جرجي زيدان" (هكذا أسمي الصحفي الشاعر) يقول إن الموارنة -وليس جعافرة الشيعة- أول حماة اللغة العربية في لبنان. غريبة إذن تلك المحاولات لتصنيف المحكي على أنه لغة منفصلة، ولدرجة كتابته بالحروف اللاتينية على غرار تركية "أتاتورك" Mustafa

Kemal Atatürk. سأتعلم، ضمن ما أتعلم، كم هو مخيف أن تسمي نفسك فينيقياً.

الذكريات كالأنوار التي تراها إذا أوسعت النظر في الشمس ثم أغمضت باتجاه العتمة. لا تكاد تمسك بأشكالها حتى تغيب. لكن لها أثراً يوهمك بمعرفتها جيداً.

بين المطعم الأرمني-الحلبي في «برج حمود» Varouj وآخر صممته امرأته -ربما- "موسى الصدر" أدفأ ذكرى. (طبعاً لا أقصد الإمام. مجرد مراسل بعيد الصلة بـ«حركة المحرومين» و«قُم». كونه شيعياً لا يفرق لأنه علماني «أزعر». أعطيه الاسم -فقط- لأنني أحببته، ولأن قناعة مجنونة تؤكد لي أنه هو الآخر سيختفي في ليبيا...) "المسيو فاروج" في حلته السوداء. تؤدة أرجوانية. نصف نائم وحاضر في نفس الوقت. لا ينتظر طويلاً حتى يكتب الطلبات. أداء ملكي. بين «الشنكليش» و«المكدوس» كأنه يسجل ملاحظات طبية عن حالة مرضى مزعجين يحبهم.

"الصدر" إلى جواري منكب على «سودة دجاج برب الرمان» طلبها تليفونياً قبل أن يلحق بنا. يخبرني أن معدته مربوطة (أجرى الجراحة منذ سنين حتى ينحف). إن لم تكن مربوطة -يخبرني وهو يخبط عليها- لما وسعته وحده «الدكة» التي نجلس عليها أنا وهو وشخص ثالث...

الضحكة تلخص شخصيته. علامة ترقيم الحكايات. تحت سطح «البرمجة» براءة. قدرة أن يكون طفلاً. الذقن الخفيفة ملح وفلفل يتبدل مع التواء شفتيه. وتعبير بالغ الجدية حيال أمور غاية البساطة. في صباه فُصل من كل مدارس المسلمين. تبول على ناظر المدرسة المسيحية بعد أن أخفقت كل جهوده الأخرى في أن يفصل. وحين دخل المدرس يحمل في حقيبته «فرد»، جلب لكل زملائه «فرودة» مثله في الحصة التالية.

لابد أنه كان في العشرينات وقت «ضرب الخراء المروحة». كل شيء متاح. إذا أوقفك حارس المرقص يمكنك، ببساطة، أن «تقوصه». ولو أردت أن «تشد» معلمتك عليك أن تريحها من «أزعر» منافس في الصفوف. الصدر «علّق» المُدرّسة فعلاً. حلم قديم، يقول، اصطحب صديقه «السطلجي» إلى المدرج وحوّطا الطالب المعني بالسلاح لكي يتحقق. (وصديقه هذا، في التسعينات، ودون أن يكف عن السطل، تمكن من إتقان اللهجة العلوية. لا يمكن أن تفرقه عن ضابط مخابرات سوري. يتعرض للجنود، خاصة في تعديهم على فقراء اللبنانية. (اللحم يهتز على إيقاع الضحكات.) يشتم ويضرب. غل السنين ودماغ عالية. لا يملكون، أمام صوته، سوى «سيدي» والاستجداء.

شخص بوداعة وطيبة الصدر - معلوم أنه يحب الأبهة والخمر، ويؤمن بالمفهوم الذكوري السائد، ثم تهوره الفردي... لم ينتم لميليشيا أو تجمع، ولكن - كيف يلاقي القابلية على كل هذا العنف؟ (جنون مؤقت - هكذا تفسره "س" - و"جرجي زيدان" يلتزم الصمت...) كل المسألة في تخويف الآخر، يشرح لي. الأجرأ يربح. أيام الحرب كان الكل يسكر و«يخوت».

لا شيء أسهل من تأمين سلاح.

***

الحرب فضاء الحرية. أن تلتزم بالقانون يعني أن تخاف. ثم إن القانون لا يطبّق. ليس على نحو عادل على كل حال. وعندما تسود قوافل «الفور-ويل» four-wheel drive الصغيرة - فوهة المدفع من فرجة الشباك - ماذا عساك أن تفعل... أراني خائضاً في الشوارع بسلاحي. القاهرة بلا شرطة أو حكومة. نظام فوضوي يترجم إلى يوْر نفوذ وتحالفات متغيرة دائماً. ثمة عناصر - مثل "الصدر" - تعرف كيف تدافع عن نفسها. أن تَقتُل أو تُقتَل فقط. شاحنات معبأة بالذخيرة. متى جاءتني هذه الرؤى؟ أكيد أن الشوارع أوحت بها: عربات الحراسة وهي «تكسر» على التاكسيات... «عندما سقطت القنبلة، لم أستيقظ مفزوعاً. وإن عمري يتشكل على البعد مثل سحب الدخان الرمادية»*. أراني مسلحاً على «تل المقطم». المدينة تحتي وأنا أضرب عباراً في الهواء. «سوبرهيرو» superhero أو إله إغريقي. بلا قيد أو أمل. الدنيا ملكي.

مرافئ

الرهبة تلفحني وأنا أتفرج. في المشاهد التي تمكنوا من التقاطها - أعقاب المجازر - لا تُسمع إلا أصوات النساء. الرجال يظهرون على نفس الحالة، لكنهم صامتون. النساء فقط يحثثن المصورين أو ينتهرنهم، دائماً بنبرة جنونية. على الشاشة أجساد متفحمة أو مقطّعة، مُخترَقة.

لا يمكن أن تعرف لمن تكون من غير الاستماع للتعليق المصاحب.

صعب أن تتعاطف مع الفلسطينيين حين تعلم بالكوارث التي سببوها في الجنوب، وصعب أن تتعاطف مع «أمل» حين تعلم بعدوانهم على المخيمات. الدروز ذبحوا

موارنة «الشوف» ثأراً من «القوات اللبنانية». وفي كل مكان ميليشيات تقتل أصحاب الدين الآخر من المدنيين على هوياتهم. حتى المسيحيين يفرون من بيروت الشرقية، لأن "عون" و«القوات» يقصفون بعضهم البعض أثناء شيء اسمه حرب الإلغاء.

بالتدريج يجف الدمع في عيني. لا أرى إلا الأجساد على الشاشة، وتهويمات الذين فعلوا بها. لا شيء سوى الأجساد. الفعل القاسي الهائم وراءها. لا يهم من، أو لماذا. لن يهم. الأجساد فقط تطاردني. أنا أيضاً يمكن أن أفعل هذا. الأجساد ورائحتها. لو لم أكن مصرياً تافهاً لما تمكنت من البكاء. أنا لا أعرف شيئاً من هذا. هذا لا يخصني. لكن الأشياء تعود، في رأسي، للدوران. قلبي ينبض بقسوة. الشاشة تومض أكثر.

والرغبة في القهوة تتزايد باضطراد.

رحت وجئت، بالفعل، وكأنني أتقصى ظلي. كيف انطبعت بيروت دون وعي على العشق والعمل ومرور الأيام - أن يتوحد مكان خفي مع إحساسي الدائم بأن قطاراً مهماً فاتني - وعلى كوني، في النهاية، الآن هنا. ثمة دراما تاريخية في «ساحة البرج» يمكنني الالتحاق بها على كل حال. هناك حيث المستطيلات الصاخبة، والمشاعر مرتبكة تماماً، تنقلب أسئلة الهوية جماعات تتصارع وأغاني وخطابات. كل أشباحي الداخلية تتجسد أمام عيني كيانات علي أن أحدد منها موقفي.

ولا معنى حقيقي للعزلة (هكذا قال لي "عباس بيضون"). ولا وقت للشقاء.

***

في الغرام فقط أتلمس إمكانية الرجوع. لهذا (وليس لعقدة "أوديب") أصاحب نساء أكبر مني. سفيراتي عند الوقت الفائت، أليس كذلك؟ كن هناك وأنا لم أولد، أو قل إنهن يعرفن سر وحدتي. أكتب لك، في النهاية، وليس لهذه الصفحات. أكتبَ لأعرّفك أن بيروت بالنسبة لي مثل طراوة لحمك وشعرك الهائش على وجهي، مثل نكهة فرجك والتواء شفاهك، وترقرق الرعشة بامتداد وركيك. أنني ألقى حالي هنا بنفس الألم، نفس الضياع والألفة، والعودة غير المنتظرة لأوطان قد تنفجر في وجهي. في أي لحظة.

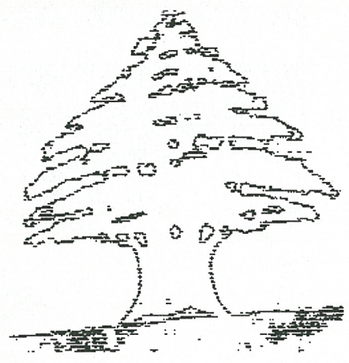

«الحمرا» والآخرون

«الجميزة» شارع ضيق تصطف على جانبه البارات. محلات ميكروسكوبية، مثل صناديق نصف مغلقة. حتى مطعم «فاروج» أكبر، أفكر. لكنها تعج بالنعمة (المسيحية غالباً، هل يستطيع الواحد أن يكف عن محاولة تحديد الديانة في لبنان؟) والأغرب أنها لا تقتصر على صغار السن والمدمنين.

الصخب أوروبي. أتذكر تختاً عربياً يلعب أغاني "زياد" القديمة - الصوت يخرق الأذن - لكن هذه أمسية أخرى. مفارقات هوية «بتضبّش». زجاجة «الشمبانيا» champagne في إناء الثلج المعدني و«لي» شيشة متجاوران. «سوسيتي ليديز» society ladies في ملابس «شرامبط» والليل بهيم بأعلام القوات من وراء الزجاج. "س" وصديقها مستعدان للتبرؤ مني لمجرد أنني أشير إليها وأتنهد.

هل كانت «قهوة القزاز» في «الجميزة» أيضاً؟

في مدخل «برد» Bread ننتظر محلاً لن يتوفر. (كل شيء هنا بالحجز، كل شيء «بعيد عنّك» موضوع.) نغزة تشبه

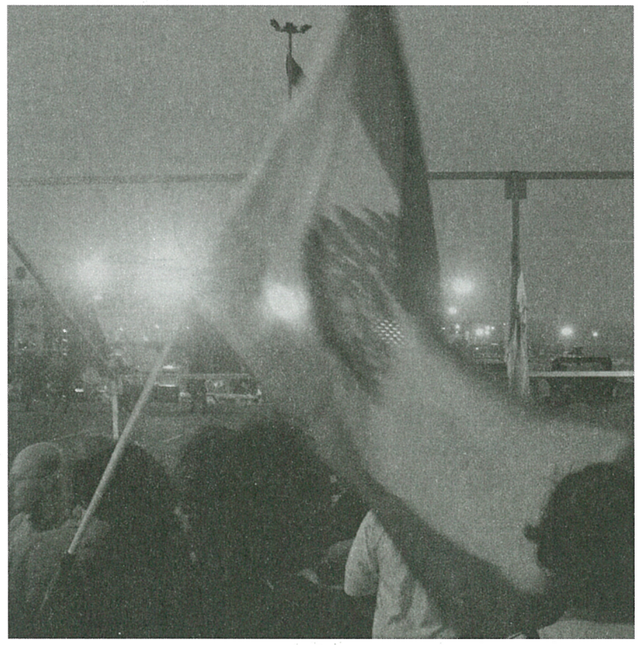

إحساسي في «اليونيون بار» union bar بجامعة «هَل» Hull. لا أعرف من أين جاءت الآن. ليس ثانيةً وحدة ولاانتماء؟ على الطريق يضربني القلق من جديد. أسئلة الوجود صراصير محبوسة في أوعية الدم. أود لو يشعر بي أحد، يأخذني لحنانه على رأي "أم كلثوم". يحتضنني.

من أي «معبر» نقلني التاكسي الذي شهد ثاني أعلى تركيز للرغبة في البكاء؟ لا أذكر وجه السائق، ولا شكل السيارة من الداخل، ولا انحناءات الطريق... فقط الأضواء الصفراء والاختناق بضيق الوقت. دهشتي المتجددة من أن يكون "زيدان" العروبي اليساري - قبل هذا وفوقه - فرنسياً. صوت "ريس بيك" يرد على "يوري مرقدي" من شأنه أن يسبح في رأسي: «عربي أناا - كنت مفكر حالك شو»... على خط تماس مجهول يتأكد حدسي بأنك لا يمكن أن تكون معاصراً من غير أن تكون أوروبياً. (العروبة في عضو خفي أسفل البنكرياس.) واضح أيضاً أن المعاصرة أسهل قليلا في بيروت.

***

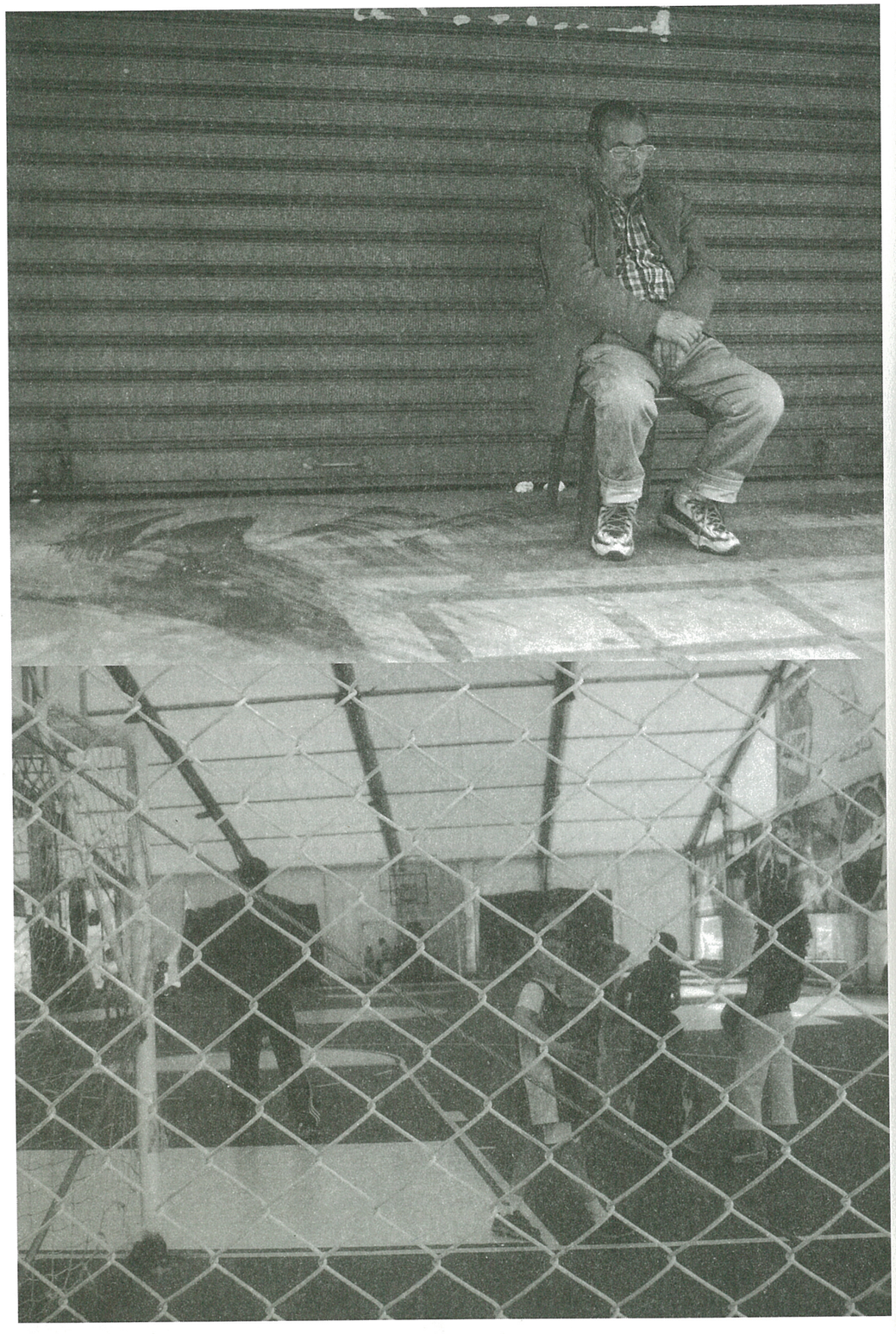

سأكتشف بعد عودتي أن "س" لم ترَ سوى حكاية «الغربة». لم ترَ - مثلاً - قصة "جو سعدي" الذي قتل الفلسطينيون ابنه الأول، ثم الثاني. ولم يبق له أبناء. جن على المسلمين في مرفأ بيروت عشية السبت الأسود. ولا محاولة "وليم حاوي" المزعومة لإيقاف شباب «الكتائب». في حموة الغضب فُتحت النار على قادة «الجبهة» كبار السن. ثمة رواية تؤكد أن «الكتائب» أمروا بقتل أربعين مسلماً ثأراً لموت أربعة مسيحيين. هل هذا حدث... "س" لم تذكر أن الفدائيين أهانوا "أمين الجميل" عند نقطة تفتيش لهم وهو راجع إلى «بكفيا»، ولا أن "كمال جنبلاط" نفسه ندد بتسلطهم وغطرستهم... لا أعرف أي شيء.

أفضّل أن أغيب في كتاب «القرن في صور». كِسَر حكايات.

"الشيخ بيار" يرفع يده بحركة درامية في «فرن الشباك»، إثر حادثة «البوسطة». وجهه ألم مطلق.

أو في ١٩٧٨، "بشير" و"أمين" في المكتب إثر اشتباكات «الفياضية» بين الجيشين السوري واللبناني. وافقان. كل منهما يمسك سماعة تليفون. ولا ينظر أحدهما للآخر.

"س" لم تذكر ما يسمى بحرب المئة يوم - «الجبهة اللبنانية» أمام القصف السوري في قلب «الأشرفية» - ولا مقتل "طوني فرنجية" في «إهدن» بعد عام (أول إنجازات "سمير جعجع"، تلك المجزرة الصغيرة). ولا مشهد «المتحف» خالياً من كل شيء إلا تابوت «ماهوجاني» على الرصيف. لم تذكر إضراب الأرمن اعتراضاً على ضغوط «القوات اللبنانية» في «برج حمود». ولا العدوان على المقابر المسيحية في «الدامور»، حيث مُثّل بالجثث القديمة. من أحداث «الكرنتينا» و«المسلخ»، لم ترَ إلا مذبحة المسلمين يوم ١٨ يناير ١٩٧٦، قبل أن أولد بخمسة أشهر تقريباً. صف رجال وجوههم للحائط، أيديهم معقودة خلف رءوسهم، وثمة جندي ثخين بشارب يرتدي خوذة معدن وعلى صدره صليب.

كان على "زيدان" أن يشرح - في الطريق من «الجميزة» إلى هناك - كيف استلهم "برنار خوري" القبر والتابوت في تصميم «بي-زيرو-إيتين» B018. خيوط مقطوعة ترحم الصورة دون أن تجليها.

***

«أردت أن أرى نفسي كمقاتل معماري عائد من أمريكا ليؤدي رسالة» - "خوري" في السنين الأخيرة، لصحفي طلياني- «وخلال ثلاث سنوات من ١٩٩٣ إلى ١٩٩٦، وقّعت ١٦ عقداً مع زبائن على مبانٍ لم تبنَ... جاء مشروع "بي-زيرو-إيتين" بعد خمس سنوات من الإحباط حيال فقدان الذاكرة التام في جهود إعادة البناء. لو نظرت بسرعة إلى مجهودات البناء الكبرى التي حصلت منذ ١٩٩١، تلاحظ أنها خالية من أي إشارة لتاريخنا الحاضر، تاريخنا المباشر. كانت هذه القضية مهمة بالنسبة لي. أنا واحد ولدت سنة ١٩٦٨، وعشت في بيروت من ١٩٦٨ إلى ١٩٨٦، يعني عشت ذلك التاريخ المباشر... والطريقة التي صوروا بها التاريخ أو الخلفية السياسية، مرجعياتهم في تعريف الهوية والبلد معمارياً تعتمد على نماذج تأسست في العشرينات والثلاثينات. نماذج استعمارية. هذا هو التاريخ بالنسبة لهم، لكنني لم أر أي إشارة للمدينة التي عرفتها. وزاد من عزمي كون الموقع حساساً لأنه موقع من مواقع الحرب: أولاً "كرنتينا" لمرفأ بيروت، ثم مخيم لاجئين للأرمن في العشرينات وللفلسطينيين من الأربعينات والخمسينات وحتى ١٩٧٦، حين قامت معركة أو مجزرة شهيرة. وهأنا هنا بعد ٢٢ سنة، مطلوب مني أن أبني شيئاً سوقياً كمرقص، وبطبيعة الحال كان لابد للواحد أن يتحقق من الوضع قبل أن يتخذ خطوات».

***

طوال هذا الوقت لا يوجد موضوع - تقريباً - إلا المعارضة والجلاء. انتقادات "جوزيف سماحة" لـ«الاستقلال ٠٥». الكل فرحان وحامل هم استمرار التواجد المخابراتي. في كل مكان مسيسون جدد وبساريون أثرياء. أولاد الفحبة قادرون على الاستمتاع بالحياة في جميع الأجواء. دائما ذلك الاعتناء بالمظهر - يقول لك «مرتب» - وتناول الطعام بتلذذ بطيء.

على أن الوقت يظل على طرف اللسان. الساعة عجلة سافية. و«ساحة البرج» قطب مغنط.

في «الومبي» Wimpy - حيث يشعرني واحد من «اليسار الديمقراطي» أنني، كوني لا أعرف الأسماء والمواقف، مجرد خراء إنساني يتوجب صرفه - أطلق النار "خالد علوان" على الضباط الإسرائيليين لأول مرة. و«البوريفاج» Beaurivage - المحل المختار لجيش سوريا منذ عودته الأخيرة - ليس فندقاً على البحر بقدر ما هو معتقل مروع (يعني قسم بوليس مصري، بالتقريب). الوسائل البوليسية في حفظ الأمن وتأمين الطرقات... حتى «الداونتاون» - قبل أقل من عشر سنوات - لم يكن سوى حطام مدينة يضطر السكان لإخلائها مثل squatters أمام جرافات «سوليدير». في ١٩٩٦، تمثال الشهداء معلق في الهواء بعد أن أزيل ليتم ترميمه. و«الحمام الروماني» - من جديد - تتضح معالمه شيئاً فشيئاً...

مرافئ

في فترة إعادة البناء، دار كلام – هنا – عن العاصمة الثقافية للعالم العربي. وتردد تساؤل عن «الدور الريادي» للقاهرة ومكانتها التاريخية كمركز ومنبع وربما مفرخ أيضاً. كان الكلام، في قلبه، تعبيراً عن قلق وطني حيال نشور «باريس الشرق» كمنافس أقدر (على أساس أن مصر عمرها قامت بهذا الدور منذ ١٩٧٥. على أساس أن إثبات الذات يتحقق بالتصريحات الرسمية، مثلاً.)

فجأة، وكأنه يرد على من تجرأ وسأل، أطلق "صفوت الشريف" أقمار «نايل–سات» NileSat في الفضاء. وخلال العقد دار كلام آخر عن أن افتتاح «البيليوتيكا» Bibliotheca Alexandrina هو بعث حضاري للإسكندرية. صادف أن صديقي "راشد" مرر عطلة آخر أسبوع هناك مع صاحبته البلجيكية. وكنت أحرر مقالة افتتاح المكتبة لـ«الأهرام» يوم كلمني. صعب أن لا أضيف – على سبيل وضع «الإنجاز التاريخي» في سياق واقعي – أن "راشد" عانى كثيراً في هذين اليومين، ليس فقط من قبح الأذان في مكبرات الصوت، ولا هجمات «الخرتية» غير المحنكين وأفراد الشرطة والكناسين وغيرهم من محترفي التسول، وبائعي الذرة المشوي والترمس ونظارات الشمس والساعات: عانى –أساساً– من عموم الناس: كانوا ينظرون إليهما كأنهما من كوكب دري. العيون ترمقهما في مساحة بين الإقصاء والانقضاض. وتذكرت مشهد المصلين على الحصر البلاستك في مدخل «محطة مصر»... منذ أوائل التسعينات...

أيامها كنت أحسب نسبة المحجبات في صباحات «الدقي» فأجدها أكثر من تسعين بالمئة. كل مرة. الذي يخيف حقاً أنهن أدنى قاسم اجتماعي مشترك. لسن – بالضرورة – متزمتات.

وقت كانت بيروت تسترد صحتها، لم يلحظ أحد أن التيار الأصولي ينتقل من الجماعات المسلحة إلى عموم الطبقة المتوسطة – الإنجاز الحقيقي لثورة يوليو، على حد أبي: أن الشعب كله صار طبقة متوسطة – ومن ثم تُحيَّد طاقته على التغيير. قبل أن يشد "راشد" رحاله على فرنسا – هناك أصبح، في النهاية، طبيباً نفسياً – انبثقت إرهاصات خطاب العولمة وتحديات الألفية الجديدة: خطورة الإنترنت و«الدش» على نشئنا، قدرة الإعلام المصري على مواكبة التطورات، موازنة الحضارة والعراقة...

والعالم أصبح قرية صغيرة...

شيكا بيكا.

«الحمرا» والآخرون

بين الوجبات والمشاريب صحفيون وأساتذة. مقاتلون يصنعون أفلاماً ومسيحيون يعشقون "الإمام الصدر". لبيت "فؤاد الخوري" أسقف عالية وحوائط تجعل للصوت صدى. «عتيق الطراز» (الترجمة الوحيدة التي وجدتها لكلمة quaint). لكن سحره أرستقراطية آفلة. (لسبب غير واضح يستحضر «إسكندرية ليه»، أو بيت عائلة "نبيل بطرس" في «مصر الجديدة». هو الآخر مصور فرانكوفوني مثل "فؤاد"، ولكن...) يخيل لي أن في الشقة شيئاً من ساكنها: «حبّوب» على تذمره الدائم من سباقات الحياة. شيء كالشكوى في بحّته الجبلية. «واخد جنب» من أي شيء لا يخصه. لا معلومات عامة ولا سياسة. (أشعر أننا نتفق في كل شيء إلا الشكل، الهوية الشخصية.) ومليء بالأشياء القديمة.

عند "سمر" و"نديم"، في «المتحف»، يدور الحديث – لولاي – بفرنسية خالصة. (حتى الرجل وامرأته في السرير يتكلمان بلغة أجنبية؟) ارتحت كثيراً لهؤلاء. كأنني مع أهلي في مسكن الأجداد، فجأة. وثمة رغبة محبطة في اصطحابهم إلى «الضيعة»، إلى الجبل. في «البلكون» أرنو إلى السماء وأصور. "فؤاد" يعترف أنه غير مهتم بالكلام الدائر. يخبرني أنه تعذب، مثل الجميع. أمه قتلها قناص. على المائدة فتاة من أصل أرمني عائدة لتوها من فرنسا. تقول إن الحرب لم تكن دائماً توقف الحياة. كلمة «بلّشوا» – في ذاكرتها – هي نذير التوقف. إلى أن يكونوا قد «بلشوا»، يمكن أن تعيش بشكل طبيعي.

***

"جرجي زيدان" ملاكم وزن ريشة ضمن مجموعة متحولة على إحدى البوابات. (لا يمكن أن تحدد – في محافل بيروت – من يصطحب من.) قصير وربعة لكن حضوره كله خفة. عربيته محايدة تستقيد من المصري والتونسي وأنواع الفصحى. لابد أنه بذل مجهوداً في التخلص من الصوت الماروني، كما بذل مع أبيه «الكتائبي» ومحل سكنه «الشرقي» في الحرب. كان يعبر إلى «الغربية» يومياً رغم كل شيء. ساهم في عمل الحركة الوطنية وساند الفلسطينيين دائماً (على حد علمي دون أن يقاتل). ما كاد يستقر في باريس حتى مضى يكشف النهضات الصغيرة في أنحاء الوطن الأوسع. الفنون والآداب. مصمم أنه ليس لبنانياً. ثم أنه، أيضاً، فرنسي (يحمل الجنسية ويصوّت بالفعل). فقط عربي. ومعاصر.

مصيبة سوداء أن تستوجب عروبة الألفية الجديدة كل هذا الجهد.

أتذكر من هذه الليلة ثلاثة أشياء: الفرح – إثر كلام "زيدان" عن علاقة "سارتر" Sartre بـ"دوبوفوار" Simone de Beauvoir – بأن مثل هذا العشق (عكس ما كان عند أبي، مثلاً) يمكن أن يتجاوز النظرية. الإعجاب بمبنى حي هو – في أدائه والجزء الأكبر من مظهره – عبارة عن تابوت فعلاً. كان السقف ينفتح على سماء متعددة الألوان... "ريس بيك" يحث على عدم تقليد الأمريكان بطريقة بالغة الأمريكية، ثم «بوب» pop مائع بالإنجليزي شجعني على الذهاب مبكراً (يجب أن أصحو مرة أخرى من أجل السفر للشام). والرجوع صحبة «شوفير» chauffeur من «الأشرفيه» يمتدح التحلق حول "الحريري" ويلعن أبا السوريين بنفاد صبر... متى أرى هذا «الشوفير» مرة ثانية؟

***

صديقي المشغول بتاريخ الشرق الأوسط قال لي إن بيروت – قبل عشرينات القرن الماضي – لم تكن ذات أهمية كبيرة. حتى على «مسار حشيش الهيبيز» hippie hash trail، في الستينات، وادي البقاع هو المكان «الأشد». من وسط بلاد الشام كلها على مر القرون الأخيرة، عاصمة نادراً ما تبرق. قرب آخر الستينات – فقط – تصبح محجاً للباحثين عن الحرية. العرب المخنوقون سياسياً أو ثقافياً أو جنسياً (هكذا كتبت "س" في مقال لها) وجدوا هامشاً أوسع من الأكسجين. إمكانية أن تحب إسرائيل بلا تصنع. أن تمارس حياتك وكأنك فرنسي. أو تحمل جنسية فرنسية لكي تعي عروبتك. بيروت محج المتطلعين...

أثناء إقامتي في «المايفلاور» سأتعلم، ضمن ما أتعلم، أن كلمة «شي» – عندما تسبق اسم مفرد – تضعه في مكان مجرد دون أن تمحي هويته. يصبح نموذجًا أبسط من المفهوم. واحد. وغير محدد. «شي مُسلّح»، مثلاً، بمثابة «مسلح ما». لكن في السياق المناسب يمكن أن تعني أيضاً «أي مسلح»، وربما

«فصيلة المسلحين هؤلاء». (عشيقتي بيروتية الأصل، لحظات الصمت المكهرب: «قول لك شي كلمة»...)

على «كوبري أكتوبر» أفكر أن بيروت، رغم أنف الحروب والمذابح، «شي مكان» للمحروم من مساحته. ربما لهذا أثارت عندي كل التساؤلات، ومنذ أول لحظة تصورت العيشة في مبانيها. الخروج والدخول... للعربي المستوحش، في النهاية، قد تكون «شي محل» بالفعل...

«شي وطن».

قلبي على الترابيزة

ماشياً في «شارع رمسيس» - في الطريق إلى العمل - بعد عودتي من بيروت بيوم واحد. غير منتبه لأن الوسخ والفوضى أصبحا يثيران دهشتي. وثلاثة أشياء تطالعني الواحد وراء الآخر: لافتة كبيرة تصور "ماما سوزان مبارك" وصدرها محاط بغبش من قلوب حمراء، إسلامي يرتدي الزي الأفغاني وعيناه تزومان من فوق لحية نصف متر، ورجل في جلباب صعيدي يضرب فتاة محجبة لا يمكن أن يزيد عمرها على ستة أعوام. كانت الحافلات «الزيتي» تصطف على يميني - في الجهة المقابلة - كعادتها أكثر الأيام.

(خلال أسبوع أو أقل سأشهد أوسخ مظاهرة في نقابة المحامين حيث صوت الخطباء يأتي من داخل المبنى - غير مسموح لهم أن يجتمعوا في الهواء الطلق، حتى داخل أسوار النقابة - ومئات الجنود يحجبون الأسوار عن الرؤية في وضع الاستعداد.)

دبكة «القوات» في أذني وأنا أحيي ضابط الأمن بـ«السلام عليكم» بدلاً من «مرحبا» وأواجه مصعداً يدار بنفس منطق أتوبيسات النقل العام. وحزن حقيقي يغمرني عندما أتذكر غلو العيشة في بيروت - مشوار التاكسي بخمسة دولار - وأن كل الذين سألتهم قالوا إن الوظائف نادراً ما تتوفر للبنانيين وإن المصريين غير مسموح لهم بالعمل قانونياً في غير الأشغال الوضيعة.

ووجدت نفسي أدمدم: «بلد وسخة حكومة وسخة».

***

لا يمكن. لا أستطيع. «إنتِ مجنونة رسمي». كيف أعتمد عليكِ ثلاثة أشهر، في عاصمة العالم؟

"س": من «ساحة البرج» لـ«صبرا»

نقف على الطريق هائمين. «شاتيلا» وراؤنا. "س" تمسكني من ذراعي وتضحك. لابد أن أعصابها توترت من جديد. لا يمكن أن أتصور شكلي بوجه مبلول وعينين حمراوين. ظهر شاب نحيل في «ترنج» training suit سألها عن وجهتنا بنبرة حنون. لم يكن ضرورياً أن يساعدنا لكنه تطوع بالإشارة إلى حيث يمكن أن نأخذ تاكسي. وكففت - في الطريق إلى «زروب الطمليس» - عن البكاء.

لا أحب فكرة أن الدموع تغسل الجراح. فقط انتظرتها طويلاً ثم جاءت. آخر يوم في الفيء أمام مقبرة المجزرة، تصالحت بالفعل مع بيروت.

***

أواخر مايو، بدأت مساعي الذهاب إلى نيويورك. أتصل بالسفارة وأستكمل إجراءات إجازة «الأهرام». أتلفن لأصدقائي الذين عاشوا

صباحات «الحمرا» وحيداً. المشي والانتظار. "فتجنستين" يلتقطني من «الروضة» صدفة. «يا باش مهندس»، هكذا يدعوني دائماً. بالسيارة يُستقطني عند «مكتبة بيسان». "إلياس خوري" و"ربيع جابر". تعجبني أغلفة "رشيد الضعيف". البائع دمث. هيئته يقرأ. أجمع ما ينقصني من "محمد شكري". مرة أخرى يبتدئ الحوار. مسيحي غير متحمس للمعارضة. الإنجاز الحقيقي في حل مشكلة الطوائف – هذا ما فهمته – وذهاب السوريين لا يفعل أكثر من تهديد الأمن. يعطيني آخر منشورات المكتبة هدية – رواية مفروض أن تكون إيروتيكية، انطباعي أنها خائبة – وقبل أن أمشي يعرض علي نشر كتاب.

اليوم أتخذ لروحي ركناً في «ملك البطاطا». («سندويشة» البطاطس جنة ملفوفة في ورق أبيض. محقة "س" في أننا لا نعرف كيف نأكل.) أتمشى بطول الممر. لن أترك المنطقة حتى يحين موعد "س" في «المايفلاور». «أنا التائه دائماً في شوارع مدينة. الحزين كأعقاب السجائر»*، ماذا يربطني بهذه الدروب؟ نسيم بحري يحمل صوت سيارة عابرة الكورنيش؟ ثمة لقاء مع "عباس بيضون" وآخر مع "كرستين طعمة". بالليل أحمل الكمبيوتر من «جان دارك» لـ«الحمرا» حتى تكون معي الصور والنصوص. الكلام عن الأدب والسياسة. الفن. ربما الفلسفة أيضاً.

حدثني "محمد سويد" –في «لينار»– عن الذهاب «يجو المعارضة»: «بلد زي لبنان يبلّش بقضية شخصية» – خلاف "الحريري" مع "إميل لحود"؟ – «وينتهي بالأمم المتحدة كلها». لابد أن ثمة جانباً كوميدياً في الحوار: هو يجرب اللهجة المصرية وأنا أحاول مع لبنانيتي الوليدة... على الطاولة المجاورة سيحل "فتجنستين" شفرة «التحرك» من زاوية عكسية. "الحريري" و"وليد جنبلاط" وتحالف «قرنة شهوان» المسيحي، يقول. (لا يذكر «اليسار الديمقراطي»، لا يبدو أن لـ«اليسار الديمقراطي» تأثيراً قوياً.) كلهم كانوا في الحكم منذ شهور قليلة. كلهم موافقون. ماذا تغير الآن؟

هناك. اختناق غير مبرر بدأ ينتابني، بالذات في المساء.

كنت أوازن رغبة التفرغ مع طيبة قلب عشيقتي. وشطحتها. أتناسى خناقنا. ملهوجا. أقول لروحي إن الجنس، من نفسه، يحل كل شيء. وأحاول أن أستشف في صوتها ما يطمئن. مستعجل طول الوقت. نافد الصبر. سرحان... بيت "ن" في «جاردن سيتي» حيث مكتب «فورد» Ford Foundation. في الصباح الباكر أتمشى إليها من هناك، دون نوم. على التليفون لا تكف الاتهامات عن الانهيال: أنني تأخرت، لا أستحق امرأة مثل عشيقتي أصلا، غير منظم. أنني متردد في الذهاب. "س" تطمئنني، من «الروضة». نيويورك أفضل جدا. كل وقتي مع "ن"، تقريبا. تبكي بحرقة إثر اقتراب موعد الذهاب.

في السيارة، أستمع لـ«بالنسبة لبكرة شو». يعاودني الاختناق.

«الحمرا» والآخرون

***

أجريت حديثاً مع "أمين سهيل يونس" في «كافيه يونس» Café Younis أول المساء. نجلس في فوهة المحل الصغير. نثف نور قرمزي على أفق بين الرماد والبنفسج. شباب «هيب» hip يطلب أنواع البن باسم منشأها: كينيا، كوستاريكا. ثورة في الكافيين. دخلنا في العد التنازلي بالفعل، هذه هي الساعات الأخيرة. لأول مرة، في بيروت، لا أعرف ماذا أفعل بنفسي.

كنت قد استرحت لمبنى «السفير». الشمس والفضحى بلكنة لبنانية. مثل مباني الجرائد عندنا لكنه أهدأ وأنظف. "عباس" صوته رخيم يضبطه إيقاع عروضي. (أمام «الحمام الروماني»، صحبة "أحمد قعبور"، بدا لأول وهلة مثل رواد «أتليه القاهرة» Atelier du Caire.) يدخل ملهوجاً وأنا أنتظر جوار مكتب الاستقبال. دائماً ينسى نفسه. المشكلة ليست فقط في السيادة. الوصاية «عم تنقل النظام السوري للبنان». يزعل من كلمة «أستاذ» رغم فرق السن.

العثمانيون عودونا على البن منخفض الجودة – "أمين" – وبذور عظيمة من خارج البرازيل. «باب إدريس» سنة ١٩٣٥. درزي عائد من أمريكا اللاتينية. "فتجنستين" لن يصل قبل ساعة، أفكر.

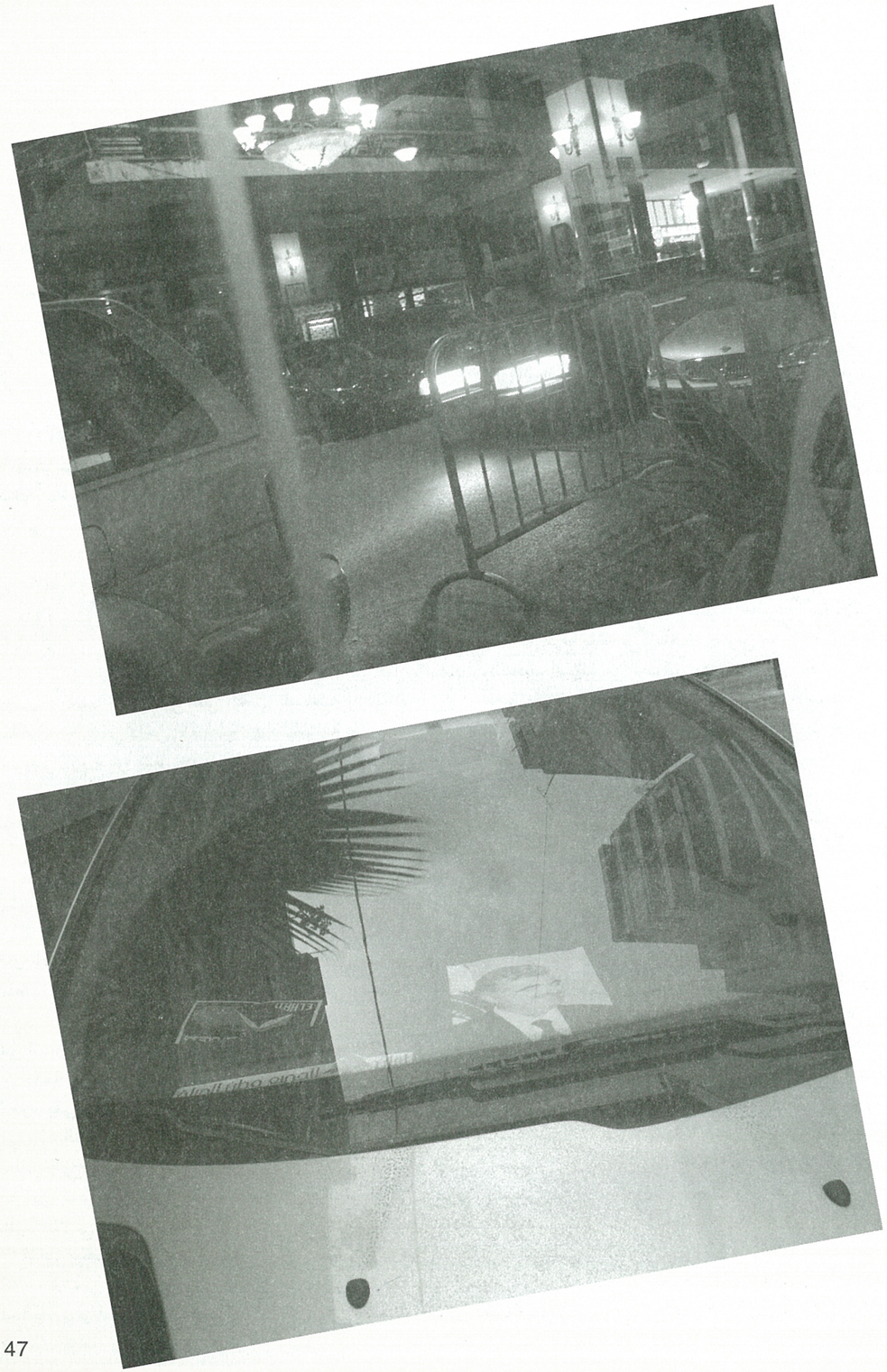

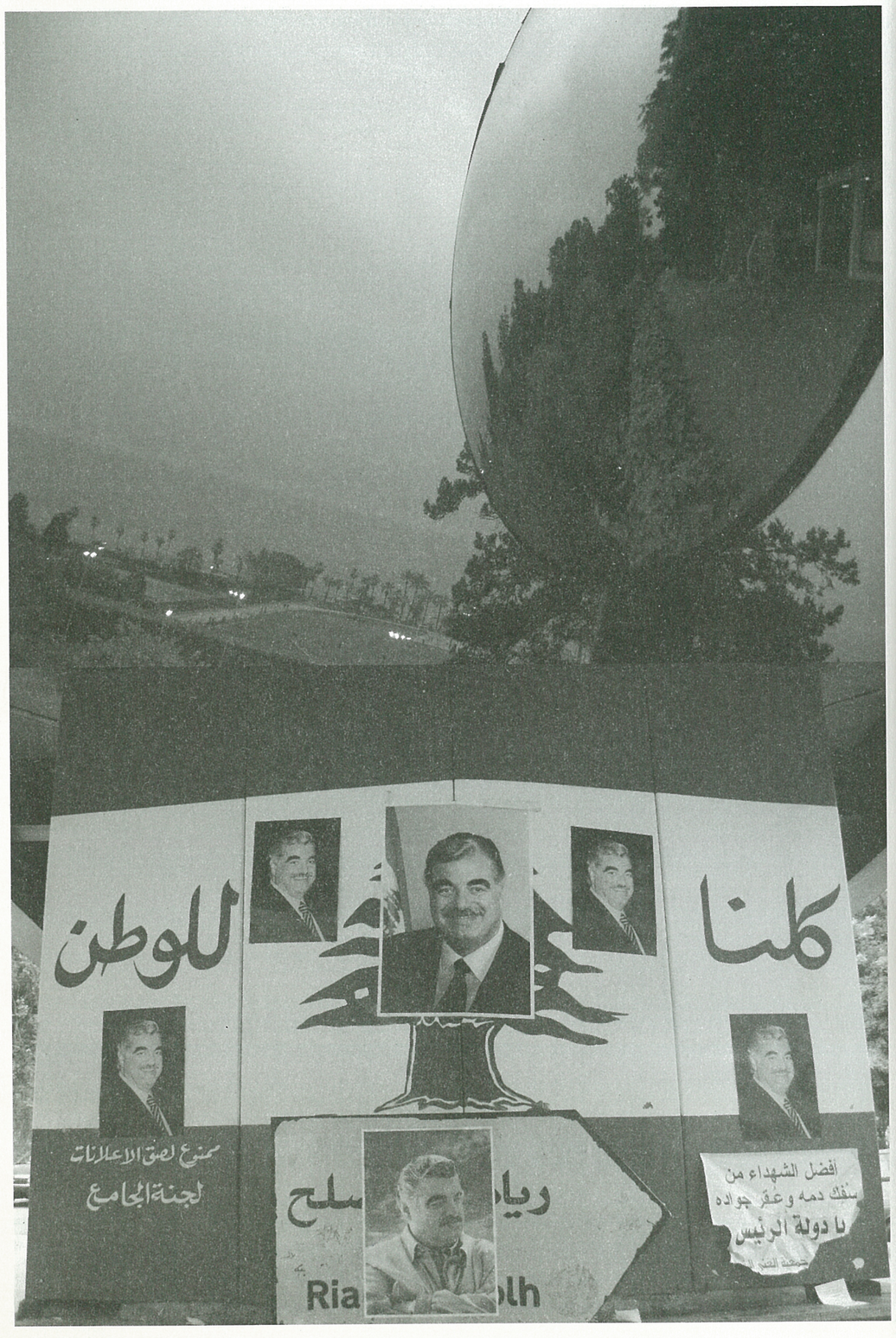

"س"، "زيدان"... كلهم مشغولون. سنة ١٩٦٠ فتح أول محل بـ«الحمرا». الأب غير الجد، تعلم بالجامعة الأمريكية. الآن لابد أن أتشتى وحدي. وظيفة البنك لم تسمح بتحقيق الذات. «بالحرب كان كتير صعب. ما كان فيك اتطور. الأهم كان الـ survival. بس يضله متل ما هو». هل أرى "الصدر" مرة قبل أن أسافر؟

أتذكر أننا ذاهبون لـ«ميوزك هول» Music Hall. آخر ليلة. "طوني حنا" و"الأخوان شحادة". إبجازه الشخصي تحويل المحمصة إلى «كافيه»... صوت "عباس" في أذني: «عودة السجال الطائفي هي عودة الوضع الطبيعي، قبل الحرب». "أمين يونس" يقول: «رغبة اللبناني بالقهوة الطيبة».

وفي «الحمرا» ريح عفنة تعكس فزع الفراق.

***

حدثني "محمد سويد" عن تعلق النخب السياسية بـ«اللوحة الطائفية» حتى من داخل المعارضة: «إذا اللبنانية بيستحقوا المستقبل لازم يعملوا شغل حقيقي لإلغاء الطائفية»، الأمر الذي يعتبره "عباس" «وهماً أدبياً». أن تتحول لبنان لدائرة انتخابية واحدة. على الأقل يتأسس الزواج المدني. الجميع متفق على أن اغتيال "الحريري" مكن الطوائف -ولو على نطاق ضيق- من تجاوز العصبيات. لم يرغب أحد في التمديد لـ"إميل لحود"، حتى الموالين لسوريا. "عباس" يتحدث عن إذلال الطوائف تباعاً: "الحريري" يُستدعى إلى دمشق وبعد اجتماع طوله عشر دقائق يعود فيصوت لـ"لحود" مهاناً، مهدداً.

***

حرب السنتين، حرب الفنادق، حرب المئة يوم، حرب الجبل، حرب المخيمات، حرب الأشقاء، حرب العلم، حرب التحرير، حرب الإلغاء... ثم قادة الجماعات و"الحريري" مدة ثلاثين يوماً كاملة في غرفة مغلقة في الطائف... ومن بعد كل هذا، «قانا» وانسحاب إسرائيل من الجنوب. من الصعب أن أتخيل - لكنني أتخيل - مشهد نساء الجنوب يقاومن الدبابات الإسرائيلية بسكاكين المطبخ. خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت - هكذا حكى "إلياس عطا الله" - أمسكت النار في الأسفلت.

«أول من أمس، كانت بيروت القلب النابض لعروبة جديدة.» - سمير قصير، ٢٠٠٥/٢/١٨

مرافئ

قبل الذهاب للمطار ببضع ساعات فقط...

في السوق الحرة سأشتري منبهاً وزجاجة عرق. لا توجد نقود للموسيقى والإلكترونيات. أتطلع في رف الكتب نصف نائم. قلم جاف ولوح «شوكولاتة». رفيق الطريق الذي حاول أن يسلم حقائبه على تذكرتي ليتحاشى الوزن الإضافي يقف ورائي في الصف. كلامه فلاحي مصري ولكن بألفاظ لبنانية. يظن أنه سيبتاع سجائر على «باسبوري» passport. أبخ في وجهه.

أرجع في آخر لحظة لجريدة وقنينة مياه. وجه "باسل فليحان" على أول صفحة.

أخيراً مضيفة تبتسم. أضع الجريدة في حجري. جلستي بين لبنانيين. فجأة تتدافع مشاهد «الميوزك هول»: «الفرخ» الحبشي الواقف على باب الحمام، وامرأة في منتصف العمر خارجة تدعك منخارها. كوكايين يا كلاب؟ الوحيد الذي ركب مع "الحريري" عشية انفجار السيارة، "باسل". عرفت خلال إقامتي أنه صديق "الصدر". أكثرهم أصدقاؤه، أو أصدقاء أصدقائه. (أحياناً أظن أن بيروت كلها لا يمكن أن تكون أكثر من «شلة» واحدة.) يعزون أنفسهم بأن الموت وفر عليه الإعاقة مدى الحياة.

وصلت وكان له شهر بالضبط يعافر. لابد أن السر الإلهي طلع

وأنا أبكي في الفيء. عندما أقوم إلى الحمام ونحن في الهواء، أفاجأ برفيق الطريق ذاته في وجهي.

الشاش لا يزال على أنف موظفة استقبال «المايفلاور» –"س" أوضحت لي أنها عملية تجميل– ثم «كورنيش المزرعة» غائب في شبورة الصباح.

ماذا يعني موت "فليحان" يوم أغادر بيروت...

خرجت سكران بلا كيف كما يقول شعراء سيرة "بني هلال".

في كل مصر لا يوجد "ميشيل إلفتريادس" Michel Elefteriades واحد يفتح «ميوزك هول» Music Hall أو يؤسس «أوركسترا جذور الشرق»... هكذا أتخيل «الكباريهات» cabarets قبل ثورة يوليو. مخمل أحمر والكل على راحته، مع فارق أن فاصل الرقص الشرقي يأتي في الآخر ويؤديه شاب أسمر بـ«علوقية» أزعجت بعض الرفاق. ومع أنني فرحت بالألحان المصرية، تمنيت لو كان "الكردي" مطرحه. أتذكر شاباً أشقر يدبك وحده، ومجموعة بنات عاريات. هل كن عاريات حقاً؟

المؤكد أنني لم أذق قطرة كحول. ومع أن أحد أعضاء الفرقة الكاريبية أقلقني – كان عفياً «مضيّعًا» ينظر إلي بشذر – رقصت إلى حد القفز على خشبة المسرح. "الأخوان شحاذة" في رداء طالباني من القدس القديمة. يصنعان معجزات بالعود والبزق. الواحد سمين وهاديء، والثاني نحيف «شعنون». "طوني حنا" من غير فرقة حسب الله البلقاني التي تصاحب «دا العونا» دون أن يشعر الواحد بشيء غلط. العتابة تلمح لانسحاب سوريا فيصفق الجميع ويعلو الصوت. «كلنا للوطن»؟ بزيادة... لابد أن الطبال يهز علم لبنان حتى هذه اللحظة... في «الباركنج» parking هجمت على "فريد شحاذة" دون مقدمات: «إنت جمييل».

أهز كتفه وأقبل قرعته.

قلبي على الترابيزة

أكتب بمقهى «تاباسكو» Tabasco. «إسبريسو» espresso و«كولا» و«مارلبورو أبيض» Marlboro Lights. الطراز «ريترو» retro شرقي وثمة موسيقى غير مؤذية. يمكن أن تشرب شيشة بأي نكهة تتخيلها. من حولي «ميني» mini رجال أعمال ولبؤات في طور البلوغ. بنوازع باطنة – متأكد – يستعجلن انفضاض البكارة. هنا بعيد عن كل شيء. على الأقل لن أصطدم بأبناء «الكار». ثمة نادل ودود يعرفني. وذات يوم –صدقني– سأضع خمسة لبؤات صغار على سرير واحد وأقطف الوردة وراء الوردة... على الناشف...

آخر رجعة لـ"س" من الشام تزامنت مع عودة "عون" بعد أربعة عشر عاماً في فرنسا. (يقولون إن الهزيمة أمام سوريا أصابته بلوثة قبل أن يسافر.) "أبو محمد" – السائق الشامي الذي أخذنا – لم يذكر شيئاً من لقائنا سوى أنني خلطت القهوة بـ«الكولا»: «شو غريبين المصاروة»... كان ذلك في استراحة «شتورة»... اليوم ذهني موزع بين أعمال الجرنال والدفتر المفتوح أمامي. إذا لم أنته من بيروت الآن، لن أنتهي أبداً. الانتخابات بدأت بالفعل. وأنا لازلت أحلم بجلسة في «الروضة».

فجأة، قطة تموء في جيبي. أتعرف على رنة تليفوني في التو: "س" صوتها يرجف...

في الدقائق التالية على ضغط زر الموافقة سأفهم الخبر على دفعات، دون أن أبرح مكاني بالمقهى، والدفتر لا يزال مفتوحاً على الطاولة. الصوت مشوش والكلام غير متماسك: "جميل السيد"، الجهاز المخابراتي السوري– اللبناني، «ارجع ع البيت واحضر تلفزيون»...

بالتدريج يتضح أن متفجرة وضعت تحت مقعد السائق في سيارة "سمير قصير"، الكاتب الذي كان ينتقد الوصاية. هو أحد مهندسي «الاستقلال ٠٥» – هكذا سأفهم في وقت لاحق – مع أنه، في الأصل، فلسطيني. هو الآخر يحمل الجنسية الفرنسية... السيارة انفجرت حال ركبها ذلك الصباح، بالضبط لحظة أدار المحرك، أمام مدخل منزله بـ«الأشرفية». نصفه الأسفل تفتت لحد الاختفاء. على شاشة التلفزيون – فيما بعد – وجوه عرفتها أثناء زيارتي الأولى لبيروت. وجوه أصبحت – ولو على نحو مجتزأ أو مجهض – أشياء مألوفة بالنسبة لعيني. البعض يبكي والبعض يحدق في ذهول.

للمرة الأولى من شهور، لم أستغرب ثقل خطواتي في طريق العودة إلى البيت من «تاباسكو». شعرت بنوع جديد من الخيبة، خيبة من لا يملك حتى حق أن يحزن. «وتساءلت بلا جدوى. عن معنى الصمود في وجه المصائب. وإنصاف اختيارات المحبة. والبشر الهائمة بالدوار»*.

كان نهاراً مشمساً وكان ينقصني نوم.

لم أتذكر لقائي بـ"سمير قصير" إلا في اليوم التالي. وأنا راجع إلى «تاباسكو» بالليل. لقاء عابر، مع أن أشياء كثيرة ممكن أن تبرر جلسة مطولة. أن نسكب الكلمات في طبق واحد. يومها كان "الصدر" ينصب ساعة في «ساحة البرج» كرمز للعد التنازلي إلى الانتخابات. الجو غائم قليلاً. و"قصير" يقف ضمن مجموعة أصدقاء أمام تمثال الشهداء، يستمع إلى النشيد الوطني وقد أعيد توزيعه ليصبح مثل موسيقى «الديسكو» disco... ويهتز على إيقاعه كأنه في مرقص...

واحد ثانٍ انفجر في غيبتي للأسف.

مرافئ

"راشد" تلفن من شرم الشيخ حيث لحق أباه بعد الانفجارات الأخيرة (٢٣ يوليو ٢٠٠٥ – هل كان تزامنها مع عيد الثورة مقصوداً؟) «صدة ردة» من وإلى باريس. صعب توفيق إجازاته القصيرة مع ظروف أبويه. يشتاق للقاهرة، لكن "سيادته" (هكذا يسمي "راشد" أباه) يكون صحبة "مبارك".

و"مبارك" يفضل شرم الشيخ على «مصر الجديدة»...

لم أذكر أن "راشد" عالج روحه بأن أصبح أخصائياً. ظل يؤجل الانسحاب من كلية الطب حتى وجد نفسه طبيباً تحت التمرين. «الدكاترة» أولاد قحبة، يقول. «قصر العيني» طرقات مهولة في مبانٍ كالقلاع المسكونة بالليل، والنّاس تدخل لتموت. راتبه لا يكفي السجائر. البقاء في بيت أهله، كيف؟ ثم استمرار الاعتماد على نقودهم. في نفس السنة أخذته حبوب "الإكستاسي" Ecstasy وغرام البنت التي اصطحبها للإسكندرية. غرام جنوني. تهيأ له العيش معها حيث راح. كان يشعر باستحالة التخصص، في مصر.

استحالة معظم الأشياء.

لكن الاكتئابات التي بدأت بغيابها الدوري post-Belgian syndrome أخذت تتفاقم في الغربة. «أعمل إيه ف روحي يا يوسف». تداعت الاستقالات. مستقبل باهر في جراحة العظام – يحضر مباريات الكرة كطبيب طوارئ – ثم خبرة ممتازة في المسالك البولية: «كفاية بتوع بقى»... كان يتلفن لي بعد كل استقالة. دائماً من Montparnasse. يصدر تصريحاً مخموراً ويشخر: «لو كان الطب قرصاً لبلعته»؛ أو «البقية في حياتك في مصر». انتهى إلى الطب النفسي – يقول – لأنه «مالوش علاقة بالطب خالص»...

بعد مكالمة شرم الشيخ سمعت بتفجر "جورج حاوي". عاد وجهه البشوش السمين يحكي عن اختراق الحصار الإسرائيلي لبيروت الغربية استعانة بـ«حشيشة بعلبك».

وبلا مبرر تذكرت أن عمتي الوحيدة الباقية لها شهور في الغيبوبة، في نفس الوقت. أن لي سنة أو أكثر لم أذهب إلى «الزرقا» حيث قبر أبي، في الطريق من المنصورة إلى دمياط.

هالتني العروق الخضراء على وجهها يوم زرتها في النهاية. كونه، لولا خلو الشعر، طبق الأصل من وجه أبي في فرشة موته. (عمتي البيضاء الحلوة. يسمونها «المحمل» لامتلائها ودلال خطوتها.) وذكرني انتفاخ بطنها، بالقياس على نحول بقية الجسم، بأطفال المجاعات السود في البرامج الإخبارية.

أحياناً يهيأ لي أننا في الدنيا لهذا فقط. لزيارة الموتى والأخذ بيد المحتضرين.

إلى أن نصبح مثلهم.

«كانت بيروت مشروع جزيرة حرية... تم إغراقها.» - "محمود درويش"، حوار مع "فرج شوشان"، ١٩٨٨

ألغيت رحلة أمريكا بعد موت "قصير" بأيام. مأساة صغيرة. ثلاثة أشهر تفرغ في «التفاحة الكبيرة» تروح علي، باختياري. الفقر وإشكاليات صنع القرار. الفقر أولاً. ثم اجتناب الأسى، في الغرام. وكدت أغني «ظلموه» حتى بدا أن الدنيا تنقلب في سكة انتخابات الرئاسة، الأمر الذي طمأنني لقرار البقاء. «قيادات الصحافة الوطنية» تتبدل بين يوم وليلة. صورة "عبد الناصر" على واجهة نقابة المحامين في الطريق إلى «الويكلي» منذ عيد الثورة. (نهنئ بعضنا بـ«عقبال اللي بعدها».) و«كفاية» كالحصاة في بركة المظاهرات. أبو "راشد" قال له، بقرف: «طبعاً هييجي "مبارك". يعني إنت كان فكرك إيه».

مع ذلك كل المبررات بخار أمام عدم الذهاب. كون الإجراءات معقدة والخوف من «جوانتنمو» Guantánamo. ضيق ذات الموارد، مثلاً. لا يهم. اخترت أن لا أذهب.

أن الشهية انفتحت للعروبة فضل "س". أسعدني أن لا تغضب مني وقت اعترفت بكل شيء، ذات تليفون طويل دخنت علبة بحالها خلاله. قلت إن عشيقتي لا تشعرني بالأمان. إنني لا أحب أمريكا. إنني لم أشعر في حياتي «بهيك وحشة». وشعرت بها تبتسم على إيقاع صوتي...

المغرب وحده من «الأقطار الشقيقة» حظي بزيارتي، قبل بيروت. حشيش وسياحة وضياع «باسبور». «جامع الفنا» بالليل. عبر الإدمان والعصاب واستخراج أكثر من بدل فاقد، ظلت نكهة الغرب العربي في حلقي. في الغرب دائماً بهار آخر. غرب النيل معابد الموتى. وعند "جيم موريسون" Jim Morrison، فضاء باطني للروح. بالنسبة لعرب المشرق، ربما، شواطئ أوروبا ومجد الأندلس...

عندما تأتّى احتمال تغطية مهرجان قرطاج الدولي الواحد والأربعين – ربما أول سفر على خاطر موضوع ثقافي، في «الويكلي» – تذكرت حقيقتين: أن المدينة الأثرية أقامها فينيقيون من صور؛ وأن "أبو عمار"، بعد خروج منظمة التحرير من بيروت إثر وصول الجيش الإسرائيلي في ١٩٨٢، راح بالطاقم هناك. عرفت أيضاً أن أهم الفعاليات "مارسيل خليفة" بأغاني «فرقة الميادين» القديمة و"محمود درويش" يقول «لماذا تركت الحصان» من جديد. فلسطين في تونس أيضاً. أو بيروت وتونس في فلسطين.

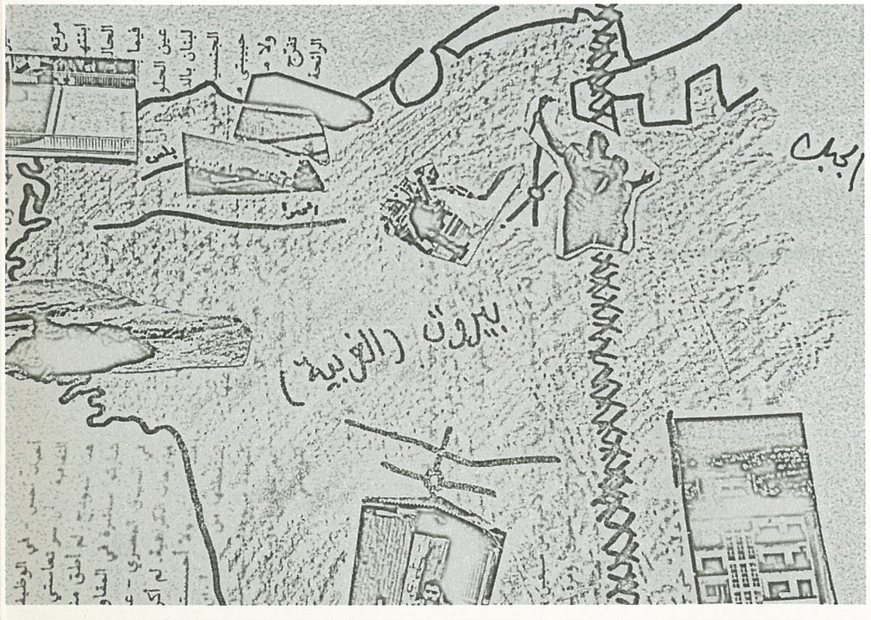

«مضيفي الهائل» – e-mail لـ"زيدان"، من بعد أن توقفت الكتابة – «كل هذا والكلام يأتي دون أن أعصر دماغي. للمرة الأولى، أعتقد، لا يمكن أن أختزل الخبرة. ولا أخفي جهلي بتفاصيلها. غريب أيضاً أن يكون كتابي من القاهرة لبيروت، عن بيروت. كل شيء يحدث معي بالعكس. البحث بعد الممارسة. وما رأيك (أحاول أن أكون مستفزاً الآن) في أن الحرب شيء جميل؟ أؤكد فقط: أنت علمتني أن أكون عربياً. أعي عروبتي، يعني، الأمر الذي يتجاوز بقائي في هذه الغرفة في "الدقي"، أكتب لك في الصباح الباكر على صوت زقزقة العصافير. كأنني نشرت القصيدة في مدينتك من أجل أن أجيئها. ثم أكتشف وأنا هناك، أنني كتبتها عن كوني هناك. أو أن فخاً رابضاً في هويتي ينتظر الانفجار، في حضورك. قشطة عليك.»

يوسف رخا، ٢٠ يونيو ٢٠٠٥

yrakha@gmail.com

إشارات داخل النص

* السطور مقتطعة من نص لنفس الكاتب بعنوان «قلبي على الترابيزة»، نشر في «زوايا»، العدد السادس والسابع–تشرين الثاني ٢٠٠٣

** عن النص الإنجليزي لمقال «أربع ساعات في شاتيلا» لجان جينيه، ترجمة دانيال ر. دوبوشي ومارثا بيريجو
Jean Genet, *Three Hours in Chatila*, translated by Daniel R. Dupecher and Martha Perrigaud

+ في كلمة إنجلترا كما في بقية النص، يرمز للجيم القاهرية بحرف «ج»، ويمكن تبين الصوت المقصود من سياق الكلام.

الصور

ص٦–٧، ٨–٩، ص١٨–١٩، ص٥٠: الكورنيش بالقرب من «مقهى الروضة»
ص١١: مبنى أسواق «فرجن» من «ساحة البرج»
ص١٢: حائط بالقرب من «راس بيروت»
ص١٥: مقهى في «زروب الطمليس»
ص٢٠: (أعلى) «ساحة البرج»، (أسفل) «الداونتاون»
ص٢٢: مقهى «لينار» بالحمرا
ص٢٤: «زروب الطمليس»
ص٢٥، ص٤١ (أسفل): «راس بيروت»
ص٢٩، ص٣٠–٣١، ص٣٣، ص٣٩، ص٤١ (أعلى)، ص٤٧ (أسفل)، ص٥٤: «كورنيش المزرعة» وحواليه
ص٣٤: «شارع بلس»
ص٣٥: «الدوانتاون»
ص٣٨: (أسفل) «ساحة البرج»
ص٤٥: «المتحف»
ص٤٧: (أعلى) «الجميزة» من «قهوة القزاز»
ص٤٩: (أعلى) الجامعة الأمريكية (أسفل) «كورنيش المزرعة»

مصادر

«لبنان، القرن في صور» (دار النهار)
صحف قديمة وجديدة، «الحياة»، «النهار»، «الأهرام»، «أخبار الأدب»
روايات "إلياس خوري" و"ربيع جابر" و"محمد سويد" و"رشيد الضعيف" (دار الآداب، دار رياض الريس)
Robert Fisk, *Pity the Nation: Lebanon at war*, Oxford University Press, 2001
حلقات برنامج «حرب لبنان»، قناة الجزيرة
أفلام "محمد سويد" و"أكرم زعتري"، نسخ الجامعة الأمريكية في القاهرة
"زياد رحباني" و"ريس بيك" («لورد ساوند»، إنتاج خاص)
cedraland.org (نص تاريخي عن الحرب من وجهة نظر مسيحية)
radioislam.org (نص «ثلاث ساعات في شاتيلا»)
floornature.com (حديث مع "برنار خوري")

شكر خاص لكل من
رشا سلطي
أسامة بحر

على «كوبري أكتوبر» أفكر أن بيروت، رغم أنف الحروب والمذابح، «شي مكان» للمحروم من مساحته. ربما لهذا أثارت عندي كل التساؤلات، ومنذ أول لحظة تصورت العيشة في مبانيها. الخروج والدخول... للعربي المستوحش، في النهاية، قد تكون «شي محل» بالفعل... «شي وطن».